الرسالة السياسية عند القاضي الفاضل
- دراسة تحليلية نقدية في نص منتخب–

مقدمة من :

أ . م . د/ بهاء عبد الفتاح علي حسب الله

أستاذ الأدب العربي المساعد – بكلية الآداب – جامعة حلوان

رسائل القاضي الفاضل السياسية

مقدمة :

لم تعرف مصر عبر تاريخها الأدبي الطويل فن الرسائل بأنواعها ؛ ديوانية كانت أو سياسية أو إخوانية إلا في فترتها الوسيطة ، فقد ظلت في عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين في بداية عهدها لا تعرف من الدواوين سوى ديواني الخراج والبريد ، وكانت الكتابة في الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يجلبهم الولاة معهم من العراق [١]، وهذا ما أكده القلقشندي حينما قال : (لم يصدر عنهم ما يدوَّن في الكتب وتناقلته الألسنة) [٢] ، ويبدو أن الولاة حينئذ لم يشغلهم إنشاء دواوين للكتابة والإنشاء ، ولم يشغلهم كذلك تعيين كتبة أو مختصين للرسائل المحبرة .

ويظهر فن الكتابة والديوانية الرسمية على وجه التحديد في خلافة أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية الحقيقي في مصر سنة ٢٦٤ هـ ، والذي امتد سلطانه إلى بلاد الشام ، وعلا شأنه وقدره ، فأقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره [٣] ، واستقدم له أمهر الكتبة أمثال أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم (ابن عبد كان) ، ويعكس اسمه فارسية أصله ومنبته ، واكتسب شهرة واسعة أبقته على ديوان الإنشاء حتى بعد وفاة ابن طولون المؤسس ، فظل قائمًا على ديوان الإنشاء في عهد خمارويه ، واكتسب شهرة واسعة فاقت الحدود ، وتميزت

---

[١]- الأدب في عصر الدول والإمارات (مصر والشام) – د . شوقي ضيف – دار المعارف – القاهرة ط ١٩٨٤ م ص ٤٠٠ .

[٢]- صبح الأعشى – للقلشندي - ط . الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة – ١٩٩٥ م ج ١ ص ٩٥ .

[٣]- المصدر السابق ج ١١ ص ٢٨ .

كتاباته كعادة أهل زمانه بالسجع ، وإن كان يتخفف منه من حين لآخر ، وقال عنه الدكتور شوقي ضيف كان سجعه خفيفا يمده بغير قليل من التصاوير [٤] ، وتوقف عنده القلقشندي في (صبح الأعشى) ليذكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء في افتتاح الرسائل وكيف تُبتدىء أجوبة الكتب [٥]حتى توفي في خلافة خماوريه ، بعد أن اكتسب شهرة جلية جعلت أهل بغداد يغبطون عليه مصر ، ويقولون إن بها كاتبًا – يقصدون ابن عبد كان – ليس لأمير المؤمنين ببغداد مثله [٦] ، وكانت رسائله متداولة بين الكتاب حتى زمن ياقوت الحموي في القرن السابع الهجري [٧]، وخلفه على الديوان الكاتب البغدادي الشهير (إسحق بن نُصير) ، وكان ذا شهرة وباع كبير في الكتابة والإنشاء ، وإن لم يكن في حجم ابن عبد كان .

وإذا جئنا إلى زمن الإخشيدين فنلمس اتساع دائرة الاهتمام بديوان الإنشاء ، وبنظمه وكُتابه ومراسمه ، غير أن أحدًا لم يُشتهر فيه مثلما اشتهر ابن عبد كان ، ومن أشهر كُتاب الديوان حينئذ إبراهيم بن عبد الله النجيرمي ، واشتهر برسالة طويلة له ، ردَّ فيها على رومانس حاكم بيزنطة ، وكان قد أرسل إلى الإخشيد رسالة يفتخر فيها ، ويمنّ عليه بأنه كاتبه وعاداته ألا يكاتب إلا خليفة ، فكال له النجيرمي الصاع صاعين ، ولإعجابه برسالته كتب منها نسخًا وأرسلها إلى العراق مُفاخرًا بها مباهيًا [٨].

وحينما نجح الفاطميون في الاستيلاء على الحكم في مصر سنة ٣٥٨ هـ في منتصف القرن الرابع الهجري ، بالغوا في العناية بدواوين الكتابة والمراسلات وعلى رأسها ديوان الإنشاء ، لاتساع رقعة دولتهم من أقصى المغرب إلى بلاد النهرين في العراق شرقا ، وإلى الحجاز في قلب الجزيرة واليمن في جنوبها ، فسعوا إلى تعيين أمهر الكتبة والشعراء والنحاة واللغويين في دواوينهم المختلفة ، ولأنهم كانوا أصحاب اتجاه مذهبي متمثل في

---

[٤]- الفن ومذاهبه في النثر العربي – د . شوقي ضيف – دار المعارف – القاهرة - ١٩٨٢ م ص ٣٤٩ .

[٥]- راجع صبح الأعشى ج ٨ ص ١٦٠ ، وراجع الأدب في عصر الدول والإمارات ص ٤٠١ .

[٦]- صبح الأعشى ٣ / ١٧ .

[٧]- الأدب في عصر الدول والإمارات ص ٤٠١ .

[٨]- راجع عصر الدول والإمارات ص ٤٠١ ، والمُغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي – تحقيق د . زكي محمد حسن ، د . شوقي ضيف ، د . سيدة كاشف ط . الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - ٢٠٠٣ م ج ١ ص ١٦٧ .

عقيدتهم الشيعية المغالية أرادوا نشر عقيدتهم عبر كُتابهم في كل بقعة من أرض العروبة ، فكان طبيعيًا أن يهتموا بإنشاء دواوين الكتابة والمراسلات ، باعتبارها المسئولة عن تسيير أمور دولتهم سياسيًا وإداريًا وعقيديًا ، وفي ذلك قال القلقشندي (لما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكُتَّابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، ووليه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي ، ويخاطب الكاتب بالأجلِّ ، ويلقب بكاتب الدَّسْت ، وكان أول أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطفات ، وله حاجب من الأمراء والشيوخ ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة والمخاد والمسند والدواة العظيمة الشأن ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة) [٩] ، ومن أشهر كتابهم ابن بشاذ كبير نحاة مصر ولغوييها في القرن الخامس الهجري ، وخلفه في مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفي خلفه ابن بَرِّي اللغوي الشهير ، إلى نهاية الدولة الفاطمية [١٠] .

وإذا دلفنا إلى العصر الأيوبي لمسنا مدى اهتمام صلاح الدين ودولته بديوان الإنشاء حيث قام على ديوانه جماعة من الكتاب الفحول ، وأشهر من تولى الكتابة في عصره هو القاضي الفاضل ، وعماد الدين الأصبهاني ، والقاضي ابن شداد ، وابن مماتي الشاعر ، والوزير ضياء الدين بن الأثير ، ومن بعدهم البهاء زهير الشاعر [١١] ، وكانُ كتاب صلاح الدين وخاصة القاضي الفاضل يتأنقون في كتاباتهم (فيعرضون فيها لألوان شتى من التعب الفني ، ليحققوا فيها أمورًا كثيرة ربما لا تتحقق كلها حتى في الشعر المتكلف) [١٢] ، وهذا يعني بأن الكتابة الديوانية في تلك الفترة كانت في كثير من الأحيان أكثر مشقة من الشعر وفنونه ، ولذا لم نعجب من فخرُ كتاب تلك الحقبة أمثال القاضي الفاضل والأصبهاني وابن مماتي بنتاجهم النثري ، فقد كانوا يفخرون بفنهم الدقيق الواعد ، ويتيهون على الشعراء [١٣] .

---

[٩]- صبح الأعشى ١ / ٩٦ ، والدست : صدر المجلس إشارة إلى أنه في الصدر من مناصب الدولة

[١٠]- المدارس النحوية – د . شوقي ضيف – دار المعارف المصرية – القاهرة – ١٩٨١ ص ٣٣٨ .

[١١]- الأدب في العصر الأيوبي – د . محمد زغلول سلام – منشأة المعارف – الإسكندرية – ١٩٩٠ م ص ١٩٧ .

[١٢]- في أدب الحروب الصليبية – د . عبد اللطيف حمزة – دار الفكر العربي – القاهرة ط . ١٩٦٢ م – ص ١٧٥ م .

[١٣]- الأدب في العصر الأيوبي ص ١٩٧ .

ولعل استشراء مثل هذا اللون الفني في عصر صلاح الدين الأيوبي ، في القرن السادس الهجري بمصر تحديدًا ، وخاصة عند واحد من أبرز رموز تلك الفترة ألا وهو القاضي الفاضل الكاتب المجيد والشاعر الكبير ، وتمايزه في إقامة هذا الفن على أسس موضوعية وفنية جديدة جعلته نسيج عصره وزمانه ، وفريد أوانه ، وقمة من قمم فن الكتابة والإنشاء في تاريخ أدبنا العربي القديم والوسيط ، هي التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع البحثي الدقيق ، محاولا فيه استشراف لغة الإبداع عنده ، وفك رموزها على درجة من درجات الوعي ، وعتبة من عتبات اليقين ، موظفا المنهج الوصفي التحليلي لقراءة منهجه الفني ، وبنيانه التكاملي وهو المنهج الذي دفع الدكتور زغلول سلام لأن يقول عنه في مقدمة كتاب (رسائل القاضي الفاضل للدكتور محمد عبد الرحمن عطا الله) : إنه أنشأ مدرسة في البيان العربي نسخت ما سبقها من طرق الكتابة الفنية التي كان من أعلامها جماعة من كبار كتاب العربية من أمثال عبد الحميد الكاتب ، والجاحظ ، وسهل بن هارون ، وعمرو بن مسعدة والصابي ، وأبي حيان التوحيدي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وإذا كان العرب قد قالوا قديمًا بأن الكتابة بُدئت بعبد الحميد ، واختتمت بابن العميد ، فهي مقولة كذبها ظهور القاضي الفاضل في مصر في القرن السادس الهجري لينسخ بها فن ابن العميد ، وينشيء ضربًا من الكتابة بدت بشائره في مصر الفاطمية طوال القرون من الرابع إلى السادس على أيدي جماعة من كبار الكتاب كان آخرهم ابن الخلال الذي تتلمذ القاضي الفاضل على يديه ، وكان لهؤلاء الكتاب المصريين توجه خاص في أساليب البيان تختلف عن أساليب البغداديين والمشارقة من حيث الاهتمام بالإيقاع في فقرات السجع وتوازن العبارت والجمل ، والاهتمام بالخيال اعتمادًا على فنون التشبيه والاستعارة والكناية والتورية ، وجاء القاضي الفاضل لتتبلور على يديه خصائص هذه المدرسة المصرية في الكتابة ، ويبلغ بها درجة من درجات النضج والفنية المعجبة المبدعة المعجزة بما وفر لها من ضروب الصنعة اللفظية والمعنوية ، ومراعاة النظائر الصوتية على مستويات متعددة من حيث تآلف أصوات الحروف ، وتوازن الفقرات وتزاوجها واختلافها ، واتفاقها وارتباط هذا بالصور

والأخيلة التي يسوقها فتتناغم الصور البيانية مع إيقاعات الكلمات وجرسها متساوقة في رشاقة مع سياق المعنى المراد التعبير عنه) [١٤].

وعلَّ هذا الكلام الذي أزجاه الدكتور سلام في حق القاضي الفاضل الفني يتناغم مع ما قيل قديمًا في الحكم على فن الرجل وموضوعيته الكتابية ، خاصة في مسائل نسخ ما جاء قبله في التشكيل الكتابي والفني والبديعي والمجازي ، وفي مسائل التجديد ذاتها ، فهذا صاحب الخريدة يقول في حقه ، كاشفا عن قيمته في زمنه ، وما تفرد به من صناعة لم تكن لتبقى لولا أدوات فنية امتلكها الفاضل بحنكته ودربته الفنية الطويلة باعتباره رجلا عايش تجربة كبيرة عبر دولتين كبيرتين (الفاطمية والأيوبية) عبر القرن السادس الهجري يقول العماد الأصبهاني عن تجربته :

(رب القلم والبيان واللَّسن واللسان ، والقريحة الوقَّادة ، والبصيرة النقَّادة ، والبديهة المُعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذي ما سُمع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره ، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار) [١٥] ، وهو ما أكده شهاب الدين النويري بعد العماد حينما قال في موسوعته : (إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويَتْ ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت به نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا محالة ، والفاضل بغير إطالة) [١٦] .

وهذا الذي دفع الدكتور شوقي ضيف لأن يقول عن طبيعة صناعته بلغة معاصرة : إن كتابته الديوانية هي كتابة فيها روح مصر التي نشأ في دواوينها ، وصقل لسانه في

---

[١٤]- رسائل القاضي الفاضل – د . محمد عبد الرحمن عطا الله – دار الحضارة للطباعة والنشر – طنطا – ٢٠٠٠ ص ٣ .

[١٥]- خريدة القصر وجريدة العصر – للعماد الأصبهاني – نشر وتحقيق : أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس –لجنة التأيف والترجمة والنشر القاهرة – ط ١٩٥١ ج ٢ ص ١٧٩ .

[١٦]- نهاية الأرب في فنون العرب –شهاب الدين النويري – نشر وتحقيق مفيد قميحة وأخرون – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ٢٠٠٤ ج ٢٨ ص ١٣٢ .

رسائلُ كتابها من أمثال ابن الصيرفي والموفق بن الخلال ، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلف بعيد ، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير [١٧]، وهذا في مجمله يعكس بحق طبيعة المصريين والروح المصرية آنذاك ، فقد كان أهم ما يميز الحركة الأدبية (شعرية كانت أم نثرية) في تلك الحقبة هي تطبعها بطابع الشخصية المصرية التي تميزت بعدة سمات أصيلة ، تأتي في مقدمتها الإيمان الراسخ بالوطن ، وتقديسه إلى درجة العبادة ، اعتقادًا بأن مصر هي وطن الخلود والبعث ، ويتجلى هذا بوضوح في رسائل القاضي الفاضل وفي شعره بصفة العموم ، وهذه السمة ترتب عليها رقة في الطبع ، وإخلاص في المعاملة ، وهما ميزتان تجمعتا في شخص القاضي الفاضل الإنساني وفي نسيجه الفني ، وانعكستا أكثر ما انعكستا على رسائله غير الرسمية أو الوثائقية ، وهي الرسائل متنوعة الأغراض في نطاق صلاته الخاصة وعلاقاته الاجتماعية ، منها ما قاله في الشوق لأحبابه ولمصر حينما كان يغترب عنها في صحبة صلاح الدين ، وكذلك رسائله في العتاب والشكر والتعزية ، إلى جانب رسائله الإخوانية والوصفية .

كذلك تتبدى شخصيته الفنية وبلون جديد في نتاج آخر من رسائله ، وهي ما سُميت أحيانًا بالمتجددات أو المياومات أو التعليقات أو المجلدات ، وهي عبارة عن كتاب سجل فيه القاضي الفاضل حوادث زمنه في أيام صلاح الدين والأعمال التي كُلف بها أو أشرف عليها مدة رئاسته لديوان الإنشاء ، وبدا فيها الفاضل كاتبًا تأمليًا يتخلى عن بنيات البديع والخيال والسجع المقصود ، ويميل إلى الرزانة والحكمة والبداهة ، يسجل فيها الأحداث الكبرى في زمنه بصفة تكاد تكون يومية ، ويعلق عليها بحرية وطلاقة ، ولعل تسميتها بالمتجددات وبالمياومات يشير إلى أنها كانت نوعًا فريدًا عن رسائله الاعتيادية ، أو الديوانية ، أو أنها كانت سجلاً حيًا للأحداث التاريخية يدونها الفاضل يومًا بعد يوم ، وهذه المتجددات كانت تمثل موضوعات مختلفة بخلاف الرسائل التي كانت تعالج – في العادة – موضوعًا واحدًا [١٨] .

---

[١٧]- الأدب في عصر الدول والإمارات ص ٤١٤ .

[١٨]- رسائل القاضي الفاضل وصلاح الدين – د . سوسن محمد نصر – دار الزهراء للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٩٠ م ص ١٢٩ .

وقد جمع المقريزي في خططه ، وصاحب الروضتين كثيرا من مذكرات القاضي الفاضل المعروفة باسم المتجددات ، وأشار إليها ابن خلكان في مؤلفه وقال عنها : (رأيت في تاريخ القاضي الفاضل عشرات من المتجددات ، رتب عليها الأيام وهو بخطه يذكر فيها ما يتجدد كل يوم) [١٩] ، وقول ابن خلكان في توصيف هذه المتجددات يوحي بأنها لاتنطبق على الرسائل الديوانية ، ولا تتفق معها ، إذ إن الرسائل كانت تكتب في مناسبات بعينها صادرة عن ديوان الإنشاء الرسمي بالمثال الفاضلي ، ويساعد على تأكيد هذا الفهم ترجيح ارنست باركر في مؤلفه عن الحروب الصليبية بأن الرسائل لون آخر مختلف تماما عن المتجددات [٢٠]، ومما ساعد باركر على هذا الترجيح العبارة التي صدر بها المقريزي اقتباسه في مناسبتين ، إذا يقول : (وقال الفاضل في تعليقاته على المتجددات) [٢١] ، فهذه العبارة تدل على أن التعليقات إنما هي شرح للمتجددات أو استدراك عليها ، فلابد أن تكون نصوصًا أخرى مستقلة عنها .

كما أننا نجد القاضي الفاضل يواصل كتابة المتجددات بعد وفاة صلاح الدين ، ودليلنا على ذلك أننا نجد مقتبسات منها تحمل تاريخ سنة ٥٩٢ هـ ، أي بعد وفاة صلاح الدين بثلاث سنوات ، أو بعبارة أخرى بعد أن تحرر الفاضل من عمله بديوان الإنشاء الذي عمل فيه طيلة سنوات عمره [٢٢] .

إذن فنحن أمام رجل خدم الكلمة قرابة نصف قرن كامل ، وتنوعت مصادر إبداعه ما بين النتاج الشعري ، والنثري على كافة أنواعه وألوانه وفنونه ، وكان بحكم مركزه السياسي وصلته بصلاح الدين ، ومكانته الاجتماعية لسان حال الدولة والمعبر عن أفكارها وخططها وسياستها في الداخل والخارج ، كما كان ذا ذهنية وقادة ، وبديهة حاضرة ، وكان لنشأته العلمية المكينة السبب في إجادته لفنون عصره وزمانه حتى أجمع دارسوه على كونه ابتدع

[١٩]- وفيات الأعيان – لابن خلكان – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – طبعة دار صادر – بيروت ١٩٧٢ ج ١ ص ٢٨٤ .
[٢٠]- الحروب الصليبية – ارنست باركر – ترجمة د . السيد الباز العريني – دار النهضة المصرية – القاهرة ١٩٦٠ ص ١٣١ .
[٢١]- الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٣٢ .
[٢٢]- راجع القاضي الفاضل وصلاح الدين ص ١٣٠ .

منهجًا جديدًا في الكتابة والإنشاء راعى فيه طبيعة المدرسة المصرية في البديع والتوليد اللفظي والاشتقاقي والتجنيسي ، كما راعى ما يمكننا أن نسميه بالنظائر الصوتية في كتاباته ، حتى لتشعر معه وكأنه أسس معجمًا مبتكرًا في عموم فنه اللغوي والإبداعي نجح أن يصوغه عبر استراتيجية أسستها رسائله وكتاباته عن حوادث الحروب مع الفرنج والصليبين ، وفتوحات صلاح الدين في الشمال والجنوب وشرق البلاد وغربها ، وهي استراتيجية تبدو في ظاهرها خفية أو مكرورة لكنها استراتيجية حرة تتحرك في ظلال النص النثري على وجه التحديد متماسة مع خيوطه الحيوية والرئيسة وتتكامل وتتكشف من خلال قراءة البنية التركيبية لرسائله وما تنطوي عليها من إيماءات وإشارات ترسم دوائر الخطاب النصي والرسائلي داخل العمل ذاته كما نجح في أن يجعل لرسائله ومكتاباته قيمة تاريخية بعيدة المدى والتأثير ، نستطيع أن نقول إنها باتت وثائق تاريخية رسمية من وثائق التاريخ الأيوبي على وجه التحديد .

مكونات الشخصية :

ولايمكننا أن نعرج لتحليل نص من نصوص القاضي الفاضل أو نستجلي سمات البناء الموضوعي والفني واللغوي والتركيبي عنده من غير أن نقف عند مكونات الشخصية التي أنتجت ذلك الفيض من الكتابات التي زخرت بها المجلدات والكتب والمآثر والمؤلفات والرسائل العلمية ، ولا نقصد بفكرة الوقوف عند معطيات تكوين الفن عنده أو ما يمكننا أن نسميه بالتشكيل البنورامي لثقافته متعددة المنافذ والمخارج أن نقف عند حدود تكوين الشخصية فحسب ، ولكن يبقى المقصود هنا هو الوقوف أمام ظاهرة (القاضي الفاضل) الشاعر والكاتب والمؤرخ – إن صحت التسمية – وهي الظاهرة التي مثلت في زمنه بحق نقطة توهج ، ومحور إضاءة على كافة المستويات في سياق التأثير والتأثر في جموع محبيه وعلى رأسهم صلاح الدين الذي قال فيه : (إنني لم أملك البلاد بسيوفكم ، ولكن بقلم القاضي الفاضل)[٢٣]، وكان الفاضل المتحدث الرسمي بلسانه في الداخل والخارج ، وكان وكما قال المقريزي : أعز عليه من أهله ومن ولده ، وكان لا يَقدمْ على أمر إلا استشاره فيه

[٢٣]- شذرات الذهب – للعماد الحنبلي –تحقيق عبد القادر الأرناؤوط – دار ابن كثير للطباعة والنشر - ط . القاهرة٠ – ج٤٤ ص ٢٢٧ .

ولا يحكمُ في قضية إلا بتدبيره) [٢٤] ، وهي النقطة التي تفسر أحيانًا – وبشكل منطقي – فكرة التداعي والتراكم لمجموع المدائح التي أُنشدت فيه من رموز الشعر والأدب في زمنه أمثال الثلاثة الكبار (ظافر الحداد وابن قلاقس وابن سناء الملك)، هذا بالإضافة إلى معاصريه من داخل مصر وخارجها أمثال أمية بن أبي الصلت ، والعماد الأصبهاني ، والرشيد بن الزبير وابن سعيد المغربي والأسعد بن مماتي وهي إن جُمعت لشكلت ديوان عشق وتقدير وإجلال لرجل ساد فترته بحكمته ورزانته وفكره وإبداعه ، وتخرجت على يديه أجيال نسجت من الفنون ذهبًا وفضة ، ولذا لا نعجب حينما نقرأ مثلا ما قاله ابن سناء الملك في واحدة من مطولاته في القاضي الفاضل ، جمع فيها جم خصاله على نغمة واحدة :

ورث المكارمَ عن كريمٍ دارُه مأوى العُفاةِ ومنزلُ الضِّيفان
عالي منارِ المجْدِ مرتفعُ الذُّرى يَدْعُو الوفودَ بألسُنِ النيرَانِ
مذ شادَ بنيانَ المكارِمِ ما وَهَى ذاك البناءُ فبان فَضْلُ الباني
فبهاؤُه مِلْءُ العِيَانِ وذِكرُه ملءُ الزمان ومِلءُ كل مَكَانِ
إن لم يكن مَلِكا فإنَّ زَمَانَه مِنْ أجْلِهِ مَلِكٌ على الأزمانِ
أوْفاتَه التّيجانُ إنَّ برأيِه تَرْوِى الممالكُ عن ذوي التيجان
أخذت بِمَجْلِسه المهابةُ حَقَّها فترى البريءَ لديه مِثْلَ الجاني [٢٥]

إذن فهذا هو القاضي الفاضل (أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي بن القاضي السعيد محمد بن الحسين بن أحمد الفرج بن أحمد اللخمي) العسقلاني المولد ، المصري الدار ، ولد بمدينة عسقلان ، وهي إحدى مدن فلسطين في يوم الإثنين الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة [٢٦] ، ويرجع أصل

[٢٤]- الخطط للمقريزي – ج ٢ ص ٢٢٣ .
[٢٥]- ديوان ابن سناء الملك – تحقيق محمد إبراهيم نصر – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة ٢٠٠٣ م ص ٢٣٨ .
[٢٦]- أجمع المؤرخون أنه ولد سنة ٥٢٩ هـ ، ومنهم صاحب وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٨٤ ، وصاحب طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢٥٣ ، وصاحب مسالك الأبصار (ابن فضل العمري) ج ١ ص ٢٧٩ .

نسبه إلى قبيلة لخم الشهيرة ، وكانت لخم قبل الإسلام منتشرة في بلاد الشام ، والعراق وباديتهما ، وفي مواقع عديدة من فلسطين ، واستوطنت في نواح متفرقةفي شمال فلسطين، وتحديدًا في منطقة الرملة ، وفي شمال مصر على الساحل [٢٧]، وقضى طفولته وترعرع في بلد آخر من بلاد الشام هو بيسان [٢٨] ، وكان والده القاضي الأشرف قاضيًا تولى القضاء في عسقلان والنظر في أمورها [٢٩] ، كما كان جده القاضي السعيد محمد بن الحسن المولود ٤٢٩ هـ ، ويبدو أن هذه الصلة الوراثية ، وارتباطها بمنصب القاضي هي التي دفعت هذه العائلة وأمثالها إلى التمسك بلقب (القاضي) مع إضاقة مشرقة له ، وإن كان القلقشندي يخالف هذا الرأي فيقول : وكان كتاب الزمان يطلقون هذا اللقب (القاضي) ، والألقاب المتفرعة منه كالقضائي والقاضوي على أرباب الأقلام في الجملة سواء كان صاحب هذا اللقب متصديًا للقضاء أو لغيره كسائر العلماء والكتاب ومن في معناهم ، وعلى ذلك عُرف العامة أيضًا [٣٠] .

إذن فقد نشأ الفاضل في بيت من بيوت القضاء ، وعاش حياته في كنف والده ، يدرس على يديه علوم القرآن والفقه والحديث والأصول ، ويستمع في مجلسه إلى المناقشات الفقهية والجدلية والمقارنة ، مما ساعد على تكوين خلفيته العلمية والأدبية و ثقافته الشرعية ، فكان أبوه بذلك معلمه الأول ، واكتسب الفاضل منه عقلية القضاة المنظمة ، التي بلا شك ساعدته كثيرًا في نطاق عمله بديوان الإنشاء الرسمي قرابة أربعين عامًا ، وفي سياق معاملاته العامة والخاصة ، إضافة إلى حرص الأب على تنشئة ابنه على الفطرة السنية المعتدلة ، فدفع به إلى مدارس تحفيظ القرآن ببيسان ، فحفظ فيها القرآن ودرس علوم العربية من نحو وبلاغة وأدب ، ومن بين مادرسه في مطلع حياته وفي صباه ديوان الحماسة ، وديواني أبي تمام والبحتري [٣١] ، فشكَّل ذلك كله فيه منابت الذوق الأدبي ، وخلفيات التناغم

[٢٧]- رسائل القاضي الفاضل السياسية في عهد صلاح الدين ؛ تحقيق ودراسة – معالي عبد السلام الحلبي – مخطوطة ماجيستير – الجامعة الإسلامية بغزة – ٢٠١٣ م ص ٧ .
[٢٨]- بيسان مدينة من مدن الأردن ، ويقال لها لسان الأرض وتقع بين حوران وفلسطين .
[٢٩]- راجع نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٢ .
[٣٠]- المصدر السابق ج ٤ ص ٢٧٦ .
[٣١]- راجع شذرات الذهب – ج ٤ ص ٣٢٤ ، وطبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٥٣ .

والتكوين الفني ، والتأسيس لعتبات العمق والرسوخ في أدائه الأدبي ، والتي تجلت في فترة تألقه ولمعانه وشهرته في مصر ، كما تشكلت لديه ما يمكننا أن نسميه بثقافة الضروريات ، والتي تقوم في الأصل على الجمع بين أطراف الأصول ؛ الأصل الشرعي والأصل اللغوي والأصل الأدبي ، وهي التي أهلته فيما بعد إلى التدرج في مناصب الدولة من أدنى درجاتها الكتابية الديوانية ، من كاتب متدرب في ديوان الفاطميين وهو لم يبلغ بعد العشرين عامًا ، إلى الكاتب الأول وصاحب ديوان الإنشاء – بدرجة وزير – واليد اليمنى لسلطان البلاد صلاح الدين الأيوبي ، هذا إلى جانب معايشته عن وعي للخلفية السياسية في زمنه ، واستيعابه الكامل لدواعيها ومُدخلاتها ، للدرجة التي معها نستطيع أن نحكم عليه بكونه واحدًا من أبرز سياسي زمانه ، ومن أبرز كُتاب الحركة السياسية في عهد صلاح الدين على وجه التحديد ، فقد كان لسانه المبين طوال فترة حكمه ؛ يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلا أحداث زمنه ، ومبلغًا عنه عهوده وسجلاته وتوقيعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقاصي الصعيد والحجاز واليمن [٣٢] .

وفي مصر التي وفد إليها الفاضل برغبة من أبيه وهو ابن الخامسة عشر من عمره سنة ٥٤٤ هـ في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ ، ألمَّ بديوان الإنشاء الذي كان يرأسه الموفق بن الخلاَّل ، ويرى د . شوقي ضيف أن سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل سنتين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من بيسان إلى القاهرة ، وقد اشتد عوده قليلا ، وخاصة أنه كان أحدب ضعيف البنية [٣٣] ، والطريف أنه في مجدداته تحدث عن صباه ، وعن رحلته إلى مصر في تلك الفترة فقال :

(أرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضيًا بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ – وهو أحد خلفائها – وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكانت الكتابة بمصر في عهد الدولة العلوية غضًّا طريًا ، وكان الذي يرأسه في تلك الأيام رجلا يقال له ابن الخلاَّل ، فلما حضرت الديوان ومثلتُ بين يديه ، وعرّفتُهُ من أنا ، وما طلبَتي رحبَبي وسهَّلَ ، ثم قال : ما

[٣٢]- راجع الأدب في عصر الدول والإمارات – مصر والشام – ص ٤١٢ .
[٣٣]- المرجع السابق ص ٤١٠ .

الذي أعددتَ لفن الكتابة من الآلات ، فقلت : ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن وكتب الحماسة . فقال : في هذا بلاغ ، ثم أمرني بملازمته) [٣٤].

وتولدابنالخلال تعليمه فنون الكتابة الديوانية ، وكان أهم أدواتها آنذاك هي حفظ القرآن وديوان الحماسة على شاكلة صاحبنا ، ثم محاولة الاستعانة بهما بالاقتباس والتقليد ، وأولى درجات الاستعانة هي التدرب على حل المنظوم إلى منثور ، أو محاولة فك الشعر والآيات القرآنية إلى جمل نثرية عادية تحتفظ بأكثر ألفاظ الشعر والقرآن ، ولكنها تنظم تنظيمًا آخر من صنع المنشيء ، وبهذا يستطيع الكاتب أن يتدرب على بناء كلمات من نسق رفيع في عبارة من صنعته ثم يتدرج بها فيدمجها بما حفظه من كتاب الله ومن الشعر العربي القديم حتى تتلاءم معها وتكون وإياها كالعقد الذي تتلاءم خرزاته ، وتتسق حباته ، وسري هذا الفن عند القاضي الفاضل فهو في رسائله يعتمد على (الاقتباس وحل المنظوم) [٣٥] ، وأحيانا تجد جملته جملة شاعرة ، تنهل من موسيقى الشعر ذاتها .

وهكذا قصد الفاضل الديار المصرية في مرحلة مبكرة من عمره طامحًا في الالتحاق بإحدى الوظائف الرسمية في الدولة ، ليكتسب قوت يومه ، ويحقق منية ذاته في الترقي داخل أجهزة الدولة الفاطمية الرسمية ، باعتبارها صاحبة السيادة في المنطقة العربية ، معتمدًا على مواهبه وفنون لغته التي أثراها في مصر في مدرسة أستاذه ابن الخلال ، ومن الغريب أن يسعى وراء أحلامه في المحروسةوهو محتفظ لنفسه بالاتجاه السني ، بالرغم من أن الصبغة المذهبية للدولة في القاهرة الفاطمية كانت الصبغة الشيعية الاسماعيلية ، إلا أن أحوال الخلافة في مراحلها الأخيرة من تاريخها الطويل لم تفقدها القدرة على السيطرة السياسية والإدارية في دولتها فحسب ، بل إنها أصبحت عاجزة عن فرض مذهبها الشيعي ، ولذا لم

[٣٤]- الوشي المرقوم في حل المنظوم – ضياء الدين بن الأثير – تحقيق يحيى عبد العظيم – الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤ م ص ١٨١ .

[٣٥]- راجع الأدب في العصر الأيوبي – ص ٢١٢ .

يكن عجيبًا أن يحتفظ الفاضل بمذهبه السني الشافعي ، وألا يقف هذا المذهب عقبة في سبيل طموحه [٣٦].

ويبدو أن القاهرة لم تعطه كل ما يحلم به من مكانة وسيادة في ديوان الإنشاء لكثرة منافسيه ، فيرحل عنها سريعًا إلى الإسكندرية ليلزم قاضيها ومتولي الأمر فيها (ابن حديد) فيرحب به الرجل ويقربه من نفسه بعد أن اختبره في فنون كتابته ، وأدرك مفاتح مواهبه ، وعهد إليه بالكتابة في ديوانه مدة ثمان سنوات ، واسترعت كتبه اهتمام موظفي ديوان الإنشاء بالقاهرة لفصاحته ، وروعة بيانه ، ووضوح مقصده ، وبديع تراكيبه ، ويقول صاحب الروضتين : إن كتبه استرعت انتباه العادل بن رزيك حين تقلد الوزارة للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ هـ ، فأرسل إلى ابن حديد في طلبه ليعمل في دواوينه ، فبعثه إليه ووظفه رئيسًا لديوان الجيش بالقاهرة ، فتوثقت الصلة بينه وبين الوزير العادل ، وهذا ما أكده أيضا عمارة اليمني في كتابه (الوزارة المصرية) [٣٧] .

ويتجلى دور القاضي الفاضل في القاهرة في ظلال الخلاف التاريخي بين شاور وضرغام في عهد الخليفة العاضد ، الأمر الذي دعا العاضد إلى الاستعانة بنور الدين صاحب حلب ، الذي أرسل إليه بشيركوه وابن أخيه صلاح الدين لتهدئة الأمور ، إلى أن تم التخلص من شاور وضرغام ، وتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاضد سنة ٥٦٤ هـ ، وكان الفاضل طيلة تلك الفترة الساخنة في مصر يكتب الرسائل والمكاتبات والتقاليد عن الخليفة العاضد بين يدي أستاذه الموفق ابن الخلال ، ولما ازداد المرض على الموفق تولى الفاضل ديوان الإنشاء ، وأصبح هو المتصرف في المكاتبات باسم العاضد ، للدرجة التي معها كتب العهود والمكاتبات التاريخية ومنها العهد الذي كتبه عن العاضد بتولي أسد الدين شيركوه الوزارة في شهر ربيع سنة ٥٦٤ هـ .

وحينما طلب شيركوه من القصر كاتب إنشاء ، فأرسل العاضد إليه القاضي الفاضل ، ويبرر أبو شامة في الروضتين ما حدث تبريرًا غريبًا إلى حدٍ ما ، وقد يكون صحيحًا

[٣٦]- هو في ذلك مثله مثل غيره من رجالات الدولة أمثال ابن الخلاَّل وعمارة اليمني وابن السلار كانت لهم وظائفهم داخل ديوان الدولة في هذه المرحلة ، ومع ذلك كانوا من أعلام السنة ، راجع في هذا (القاضي الفاضل وصلاح الدين) ص ١٢٤ .

[٣٧] - راجع الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ١٣٠ .

وصائبًا فيقول : (إن القصر بعثه إلى أسد الدين شيركوه استبعادًا له ، ذلك أنه زاحم كتاب القصر فثقل عليهم أمره ، وعندما أرسلوه إلى شيركوه ظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا الأمر لا يتم ، وأن أسد الدين سيقتله كما قتل من قبله ، يعنون ضرغامًا وشاورًا وابنه ، وقالوا : لعله يُقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا ، فكان من أمره ما كان) [٣٨] .

وفي هذا الدلالة الكاملة على الحقد الذي كان يسكن نفوس منافسيه في ديوان الإنشاء بالقاهرة تجاهه ، ويفسر د . زغلول سلام هذا الحقد تفسيرًا مُعتدلا حينما يقول : (هذا الحقد مبرره خصائص الفاضل وطبائعه وتقدمه في فنه واستقامته في خلقه ، واعتداله وأنه لا اعوجاج فيه كاعوجاج الموظفين في عهده ، وهكذا أرادوا التخلص منه ، وأراد الله تعالى التمكين له في دولة غير دولتهم ؛ دولة ناشئة فتية هي دولة صلاح الدين) [٣٩] .

ونجح القاضي الفاضل في توثيق علاقته بشيركوه وبابن أخيه صلاح الدين ، وتوثقت هذه العلاقة أكثر بعد استقلال صلاح الدين بالحكم ، بعد وفاة عمه ، فقد أعجب صلاح الدين بالفاضل وقربه إليه وأغدق عليه بالنعم والعطايا ، وتجمع الآراء أن السبب الرئيس في هذا الإعجاب هو اعتدال القاضي الفاضل وتقواه وكثرة عبادته وحسنخلقه– على حد تعبير صاحب الروضتين –[٤٠] واعتداده بفنه وأدبه وبوظيفته ، على خلاف ما ظن الفاطميون من أن دفعهم للقاضي الفاضل لشيركوه ومن بعده صلاح الدين إنما بذلك قد يمهد للتخلص منه ، ومن سيده حين يتغلبون عليه – كما كانوا يقدرون – بإخراج الجيش النوري من مصر ، وغفلوا حين قرروا هذا أنهم قد وضعوا خبرة القاضي الفاضل وكفاءته تحت تصرف الوزير الجديد ، وأنهم بذلك قد ساعدوا على التمكين لصلاح الدين في الأرض ، ولم يلبث الفاضل بعد سنتين أن أصبح الرئيس الرسمي لديوان الإنشاء الأيوبي سنة ٥٦٦ هـ [٤١]، واللسان المبين لصلاح الدين طوال فترة حكمه ، يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والمولوك والولاة مسجلا أحداث زمنه ، ومبلغا عنه عهوده وسجلاته وتوقيعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه

[٣٨]- المصدر السابق ١ / ١٥٩ .
[٣٩] - الأدب في العصر الأيوبي ص ٢١٣ .
[٤٠]- الروضتين ج ١ ص ١٢٩ .
[٤١]- القاضي الفاضل وصلاح الدين ص ٢٠١ .

من الإسكندرية إلى بغداد وإلى النوبة وأقاصي الصعيد وبلاد الحجاز واليمن [٤٢]ولم يكتف صلاح الدين بذلك بل اتخذه وزيرًا ، ولم يكن يتخذ قرارًا إلا بعد العودة إليه ومشاورته ، وحينما كانيغيب عن البلاد في فتوحاته وينيب عنه أحدًا من أقاربه أو وزرائه المقربين أمثال بهاء الدين قرقوش في حكم مصر يبقي معاه القاضي الفاضل ليدير الدفة السياسية في البلاد .

ولم يمنع ذلك كله أن شهد القاضي الفاضل الفتوحات والمعارك الكبرى مع صلاح الدين وخاصة في حطين ، وفتح بلاد المقدس ، كما صحب صلاح الدين في وقعة الرملة ، ويكشف أبو شامة عن الأدوار التي لعبها القاضي الفاضل في خلافة صلاح الدين بقوله : (في سنة ٥٨٥هـ كان صلاح الدين بالشام يدبر بعض أمورها ويقوم بتدعيم ملكه وإعداد جنده ، وكان الفاضل بمصر يرتب للسلطان أموره ويجهز العسكر ويعد الأسطول ، ويحمل إليه المال والميرة إلى عكا ، والسلطان يكاتبه في مهماته ، وترجع أجوبته بأحسن عباراته مشيرًا وناصحًا ومسليًا ، وباحثا عن مصالح الإسلام متقصيًا) [٤٣].

وفي هذا الإشارة إلى طبيعة الأدوار الكبيرة التي لعبها الرجل في عصره ، والمهام الجسام التي أوكلت إليه من قبل صلاح الدين ، وهذا الذي دفع بروكلمان لأن يقول : (نهض القاضي الفاضل بعبء الإدارة كلها منذ تم الأمر لصلاح الدين ، وعني بتدوين يومياته الرسمية طوال عهده بالإدارة العامة ، لكن يد الزمان لم تحفظ لنا سوى نتف صغيرة) [٤٤].

واستمر الفاضل رفيقا لصلاح الدين بين مصر والشام طيلة خمسة وعشرين عامًا ، قضياها جنبًا إلى جنب في كفاح رائع ومتناغم ، ذلك يحمل السلاح في وجه المعتدين الصليبيين ، ومن يدعمهم من الأمراء المحليين المتباكين على سقوط دولة الفاطميين ، وهذا من ورائه يدعمه بقلمه ويضرب به في كل اتجاه ، قاصدًا من وراء ذلك كله تدعيم أركان الدولة في الداخل المصري ، وفي كل الأقطار الأخرى كالشام والحجاز واليمن ، وتقوية علاقة السلطان

[٤٢]- عصر الدول والإمارات ص ٤١٢ .
[٤٣]- الروضتين ج ٢ / ١٦٥ .
[٤٤]- تاريخ الشعوب الإسلامية – لكارل بروكمان – ترجمة نبيلة فارس ومنير البعلبكي - طبعة دار العلم بيروت ١٩٦٨ م ج ٢ / ٢٣٣ .

بالخلافة ورجالها ورموزها في بغداد ، حتى تكون عونا له في مقاومة الفرنج وصد الصليبيين ، ومخاطبة القوى الخارجية مبينا صلابة الجبهة الداخلية وتماسكها ، ورغبة السلطان الحقيقية وتصميمه على استعادة ما سلب واغتصب من البلدان [٤٥] .

واستمر الحال بالقاضي الفاضل على هذه الوتيرة إلى أن لقي السلطان صلاح الدين ربه سنة ٥٨٩ هـ ، وتجمع أكثر الآراء إلى أنه كان حاضرًا وفاته بدمشق ، وبكاه بكاء مرًا ، ولم يعد إلى الوزارة من بعده ، بل اكتفى بالوقوف إلى جوار أبناء صلاح الدين حينما تولوا الخلافة ، ومنهم العزيز سنة ٥٩٥ هـ ، وظل على ولائه له وحظي عنده على المكانة نفسها التي كانت لأبيه من زاويتي الرفعة ونفاذ الأمر وخلفه ابنه المنصور الذى تولى الخلافة صبيًا فسانده الفاضل ، حتى قدم عمه الأفضل من الشام فاستوزره لزمن قصير ، ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر ليحكمها سنة ٥٩٦ هـ ، وكانت بينه وبين القاضي الفاضل وحشة كما يقول ابن تغري بردي فدعا على نفسه بالموت ، واستجاب الله لدعوته فبينما كان العادل داخلا من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة ودفن بظاهر القرفة بالقاهرة [٤٦]، وأكد الكلام نفسه صاحب مرآة الزمان فقال : (إنه لما استولى العادل على مصر وولى له صفي الدين بن شكر الوزارة ، خافه فدعا على نفسه بالموت حتى لا يهينه فأصبح ميتًا) [٤٧] .

وتوفي الفاضل سنة ٥٩٦ هـ تاركًا وراءه تراثا ضخمًا من الرسائل التي جمعت في عشرة مجلدات [٤٨] ، وذكر ابن خلكان أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد [٤٩] ، هذا غير ما ضاع منها ، وقد روى منها ابن سناء الملك وجمعها في كتاب (فصوص

---

[٤٥]- راجع القاضي الفاضل وصلاح الدين ص ١٨٤ .

[٤٦]- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – ابن تغري بردي– دار الكتب المصرية ١٩٥٠ – ج ٧ ص ٢١٢ ، والأدب في عصر الدول والإمارات ص ٢١٤ .

[٤٧]- مرآة الزمان – ليوسف قزاوغلي – ط جامعة أم القرى – مكة المكرمة ١٤١١ هـ– ج ٨ ص ٤٧٢ .

[٤٨]- المصدر السابق ج ٨ ص ٤٧٢ .

[٤٩]- وفيات الأعيان – لابن خلكان – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – طبعة بيروت ١٩٧٢ م ج ٣ ص ١٥٨ .

الفصول وعقود العقول) ، وهذه المجموعة توجد منها عدة نسخ خطية [٥٠]، وقد قام بجمعها ونشرها الدكتور مصطفى الصاوي الجويني ضمن كتابه (البديع لغة الموسيقى والزخرف) [٥١]، وروي أبو شامة منها في الروضتين ، وابن الأثير في الوشي المرقوم ، والنويري في نهاية الأرب ، والقلقشندي في صبح الأعشى ، والحموي في ثمرات الأوراق ، والمقريزي في خططه ، وجمع ابن عبد الظاهر مجموعة منها سماها (الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم) [٥٢]، هذا غير ديوان شعر مطبوع [٥٣] ، ويرى كثيرٌ من دارسيه أن شعره لا يصل فيه إلى مرتبة رسائله من سلاسة الحبك والنظم والتركيب ، ويخلو في كثير من المواضع من وحي العاطفة وصدقها ، وقد لاحظ ذلك الصفدي فقال : (وأما شعره فكثير ، وكله قصائد مطولة ، ومعانيه معاني الكتَّاب لا معاني الشعراء ، فلذلك قلَّ دوْرُه على الألسنة) [٥٤] .

وإذا كان هذا هو نتاج الرجل وتراثه الأدبي والفني والسياسي طيلة عهدين كبيرين ؛ عهد الفاطميين والأيوبيين ، شارك من خلالهما في إذكاء حركتي النثر والشعر في أدق فترة من فترات تاريخ الأمتين العربية والإسلامية طيلة القرن السادس الهجري ؛ فترة الحروب الصليبية التي امتدت لقرابة ربع قرن كامل ، كان فيها الفاضل لسان أمته ، ومرآة حالها على كافة المستويات ، وأدى دوره كاملا في مواكبة هذه الأحداث ، وفي التأصيل لها ، وكانت رسائله وهي من أبرز ألوان النثر تحديدًا في تلك الفترة تؤدي دورها جنبًا إلى جنب بجوار حركة الشعر عامة ، ولمسنا فيها عاطفة دينية جبارة ، لا تعرف الرفق ، ولا الهوادة إضافة إلى عاطفة الجنس وعاطفة اللغة وعاطفة الانتماء وروح الوحدة ، وكان لفتوحات صلاح الدين أثرها البالغ في أدبه نثرًا وشعرًا وفنا .

---

[٥٠]- منها نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٦٥ ، ونسختان بالمكتبة الأزهرية الأولى برقم ١٥٢٢ ، والثانية برقم ٥٢٣ .

[٥١]- البديع لغة الموسيقى والزخرف – د . مصطفى الصاوي الجويني – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ١٩٩٣ م

[٥٢]- الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم – اختيار محيي الدين بن عيد الظاهر – تحقيق د . أحمد أحمد بدوي – نشر مكتبة نهضة مصر – القاهرة ١٩٥٩ م .

[٥٣]- ديوان القاضي الفاضل حققه د . أحمد أحمد بدوي سنة ١٩٦٢ – ط . دار النهضة المصرية .

[٥٤]- الوافي بالوفيات – صلاح الدين الصفدي – ط المطبعة الهاشمية – دمشق ١٩٨١ م ١٨ / ٣٦٣ .

رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسي بقلم القاضي الفاضل يبشره بفتح بلاد النوبة :

أرسل صلاح الدين الأيوبي هذا الكتاب بقلم القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله يبشره بفتح بلاد النوبة وضمها إلى مصر ، وجاء فيها :

{....(**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**) ، (**سلامٌ قول من رب رحيم**) ، (**فروح وريحان وجنة نعيم**) وصلاةٌ يتبعها تسليم ، وكأسٌ يمْزجُها تسْنيم ، وذكرٌ من الله سبحانه في الملأ الأعلى ، ورحمة الله وبركاته معلومة من النشأة الأولى ، على مولانا الإمام المستضيء بالله ، المُستضاءِ بأنوارِهِ ، المستضاف بداره ، الداعي إلى الحق وإلى طريقٍ مستقيم ، الراعي للخلق كما يَرْعى النِسيم النَّسِيم ، العامِ فضلهُ ، التامِ عدلهُ ، المطروقِ مَوْردُ فنائِه ، المصدوقِ في موْردِ ثنائِه ، المحقوقِ من كل وَلِيَّ بولائِه ، ابن السادة الغُرّ ، والقادرة الزُّهْر ، والذَّادة الحُمْس[٥٥]، والشادة للحق على الأسّ [٥٦] ، سُقاةِ الكَوْثر ، وزمزَم والسَّحاب ، ووُلاةِ الموْسِم والمَوْقِف والكِتاب ، والموصولِ الأنساب إذا نُفِح في الصور فلا أنساب ، والصابرون على حساب أنفُسِهم ، فهم الذين يُؤتوْنَ أجْرَهم بغيرِ حِسَاب.

مملوكُ العَتبات الشريفة وعبْدُها ؛ ومن اشتملَ على خاطرِه وَلاؤها ووُدّها ، وكانت المشاهدةُ لأنوارِهِ العليةِ التي يوَدُّها ، ومن يَقرُن بفرض الله سبحانه فَرْضها ، ويُسابقُ بطاعتِهِ إلى جنةٍ وصفها الله تعالى بقوله : (**وجَنْة عَرضُهَا**) : يَلْثُم وجهَ تُرابها ، ويرى على بُعْد دَارِهَا الأنوارَ التي تُرى بها ، ويقِفُ لدَيْها وقوفَ الخاضِع ، ويَضَع أثقالَ الآثام عن ظهرِهِ منها بأشرف المَوَاضِع للواضعِ ، ويُخْبِتُإليهاإخباتَالطائحالطائع، ويرجو فضْلهَا رجاءَ الطامح الطامع ، ولولا أن الكتابَ حجابٌ بينه وبين المهابة التي تحُولُ بين المرءِ وقلبِهِ ، والجلالةِ التي هو في تعظيمها على نُور رَبِّه ، لكان خاطِرُه في قبضةِ الهَلعِأسيرًا ، ولا نْقلبَ إليه البصرُ خاسِئًا حسيرًا [٥٧] ، لكنَّ قلمَه قد تَشَاجعَ ، أن كان لسانهُ عن الإبانةِ قد رَاجعَ فيقول :

---

[٥٥]- الحُمْس : هم قريش لأنهم كانوا يتشددون في دينهم وشجاعتهم ،

[٥٦]- الأس : أصل البناء .

[٥٧]- وهو مأخوذ من قوله تعالى : (ثم ارجعِ البصرَ كرتين ينقلبُ أيك البَصرُ خاسِئا وهو حسيرٌ) من سورة الملك آية ٤ .

إن الله قد رَفع مِلة الإسلامِ على المِلل ، وكَفَل نَصْرَها وكفى ما كَفل ، وحمى مُلْكَها وحَمَل، وجَعَل لها الأرضَ ، في أيدي المُخالِفِين ودائع ، ومكَّن يَدَه من أعناقهِم فهي إما تَعْقِد الأغلال أو تصُوغ الصنائِع ، والحقّ بها قائمُ العَمُود ، والسيفُ الكِفايةُ لازِمُ الغُمُود [٥٨] ، والبشائرُ تُمَسّك الصباح وتُخَلَّقُ الدُّجى ، والخيلُ على طُول ما تشتَمِل الوحا ، تنتَعِلُ الوجى ، والأيامُ زاهرةٌ ، والآياتُ باهرةٌ ، وعِزَّةُ أوليائِها قاهرة ، وذِلَّةُ أعدائِها ظاهرة ، وعناياتُ الله لدْيها متواليةٌ متظاهرة ، إذا تغرَّب اسمُها يومًا عن مِنْبرٍ أُعيد إلى وطنِه غدا ، وإذا أُوقِدَتْ نارُ فتنةٍ ، في معصيتها أُوقِدَتْ في طاعتها نارُ هُدى .

وقد كان النيلُ قِدْما فرتْ عن الفُراتِ أبناؤهُ ، وتَحصَّنت عن غُلل المؤمنين عنه فلم يتغلْغَل إليها ماؤه ، وكادِت السماءُ تُعنيه بمطرِها ، والأرض لا تُوشِّيه بزَهَرها ، والأعناق قد تقاصرَ دُون الراجين بدو معصمها ، والقلوبُ قد لاذتْ بأستار الجدار معضمها ، والأوثانُ منصوبة ، والآيات مغصوبة ، والتيجان بغير أكفائِها من الهامات مَعْصُوبة ، والدِّين أديانا ، والمُذَكرون بالآياتِ يَخِرِّون عليها صُمْمًا وعُمْيانا ، والعادلُون بالله قد وَطَّنوا ألسِنَةً وصَرحوا عقائد ، والمعتدون قد أضلُّوا فِعالا وضَلُّوا مَقاصِد ، وكراسيُّ خلافة الله قد أُلْقِيَ عليها أجسادٌ كانت تقْعُد منها مَقاعِد ، ومنابرُ كلماتِ الله قد كاد كَيْدهم يأتي من القواعد ، وجَرَتْ على بُنُوة البُنُوة أشدُّ نَبْوه ، وقصُرَت الأيدي فلا حَدُّ سَوْط و لا حدُّ سَطوة ، ثم قست قلوبٌ (**فهيَ كالحِجَارةِ** أو **أشدُّ قسْوةً**)[٥٩] ، وغرَّت الأيَّام وما وعدت ، وأوردتَ الهِمَمُ وما أصدَرَتْ ، وطغى طُوفانُ الطُّغيانِ ولا عاصِمْ ، وسمَا بناءُ البُهْتان ولا هادم ، وضاقت الصدُور ، ورحَلتْ بِغلِيلها إلى القبور ، وظُنَّ أن طيّ دولتهم معدُوقٌ بالنُّشوُر، حتى إذا جلاَّها اللهُ لوَقتِها ، وأنْجَز جموعَ الضلال إلى ميعادِ شتَّها ، وأراهم أيةَ مَعْدِلته (**وما نُريهم من آيةْ إلا هيَ أكبرُ مِنْ أخْتِها**) [٦٠] ، (**جاءَ الحَقُّ وظَهَرَ أمرُ الله وهمْ كارِهُون**) [٦١] ، (**وحِبط ما صَنعُوا فِيها وباطلٌ مَا كانُوا يَعْمَلُون**) [٦٢] .

---

[٥٨]- الغمود : جمع الغمد ، وهو جفن السيف .
[٥٩]- سورة البقرة آية ٧٤ .
[٦٠]- سورة الزخرف آية ٨٤.
[٦١]- سورة التوبة آية ٤٨ .
[٦٢]- سورة هود آية ١٦ .

كانت نعمةً من الله يَمُنُّها على المملوك أن انتخبهُ من بين أهلِ أرضهِ ، وانتخبهُ لإقامة ما أمات بالباطلُ من فرْضه ، ، ويَسَّرهُ لما يَسَّرهُ من نُصرةِ الحق وأهلِه ، وبَشَّره بما بَشَّره من لواء النصر ومَدَّ من ظِلّهِ ، وألهمه الهِمةَ التي افترَعَ منها بكرًا ، ومنحهُ النُّصرة فيما يستطيعُ العدو صرْفاولا نصرًا ، مكَّنه من صَيَاصيهم [٦٣] فحَلَّها ، ومن دِمَائِهم فطَلَّها ، ومن سيوفهِم ففَلّها ، ومن أقدامهم فاستَزَلَّها ، ومن منابِرِ دُعاتِهم فعجَّل تَداعِيهَا ، ومن أنْفس أعدائِهم فأكثر تَنَاعِيَهَا ، وأبْرزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعِهِم ، ويَسَّر الذين كُتِبَ لهم العفو إلى منافعِهِم ، ونَثَر خَزَائِنَ المُلكِ من تِيجانِها ، وفَضَح على يدهِ وبلسانِه ما زَوّرَتْه من أنسابها ، وحَاسبها فأظهر زَيْفَ حِسَابها ، ونقلها من ظهور أسِرَّتها إلى بُطُون تُرابِها ، وعَمَدَ إلى أهلِ دعوتِها الذين بَسَقوا بُسُوق النخل فأعلاهم على جُذُوعِها ، وحملتْ قلوبُهم فُوفَ [٦٤]الحقدِ فأخرجها من أكمامِ طلُوعِها ، فهل ترى لها من باقِية ، أو تسَمْعُ لهم من لاغية ، أو تَجِدُ إليهم من صاخية ، فأصبَحُوا لا تُرى إلا مساكِنهم أو مَساكِينُهم ، وحصدوا حَصد الحشيش ، ثم لا تُخافُ سُيُوفهم ولا سكاكِينُهم ، واستُنزلوا من عِقاب اللُّوح ، وسُجِنوا في الهَمِّ من طول مُدَاومة عِقاب الرُّوح ، ثم تدارَكُوا إلى الدَّرْك ، واشتركُوا في الشَّرْك ، وأقفرت منهم عِراص[٦٥]، وزَهِدَتْ فيهم خَوَاص ، وعُلِم أن ليس لله غالِبْ ، وأن ليس يفُوته طالِب ، وأن المُلكَ لله وحده ، وأن الويلَ لمن تجاوز أمْره وحَدَّه .

وكان المملوكُ ممن عَطّل من أوثانِهم ، وأبْطلَ من أديانِهم ، فائزًا بحسنةٍ ينظُر إلى حسناتِ خليل الله صلى الله عليه وسلم في كَيْده الأصنام وتكْسيرها ، وتضليلِه عابِدِيها وتكفِيرِيها ، وعَمدَ المملوكُ إلى المحاضر فجمَعَها ، وإلى المنابِر فرَفعها ، والجمعة فأطاعَ من شَرَعها ، وأسماءِ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوَصَلها باسمه وما قطَعَها ، وعمومتِه رضوان الله عليهم فتلاها له واتبعها ، وأشادَ باسم أمير المؤمنين لتكونَ الصلاةُ جامعة ، والذِّكْرى شاملةً والإمامةُ للجماعة شارعة ، والهدايةُ للضَّلالة صارعة ، فعادتْ للملَّة أعياد ، واخضَرَّت للمنبر أعواد ، وأُنْجزَ للأمة ميعاد .

---

[٦٣]- صياصيهم : حصونهم .
[٦٤]- فوف : القشرة التي على حبَّة القلب .
[٦٥]- العراص : العرصة الواسعة بين البيوت .

وبعد ذلك تحاشدتْ أولياءُ الذاهبين وتنادَتْ، وتسَاعتْ نحو مستقر المملوك وتعادَتْ ، **(وإذ زُيَّن لَهُمُ الشيطانُ أعْمالَهُمْ وقالَ لا غالبَ لكُمُ اليَوْمَ من النَّاسِ وإني جَارٌ لّكُمْ فلما تَرَاءت الفِئَتانِ نَكصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وقالَ إنّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ)** [٦٦]وكانوا حِميَّةحامِية من بني حام كالجراد أرْجُلا ، إلا أنَّ اللهَ حَطَمها بسُليْمانِه ، مع مَن انضمَّ إليهم من ألفافٍ وأطراف ، وأوشابٍ[٦٧] وأوباش : من جُندي كسَبَه سيفُه ذُلَّة ، وطَرَده عن مواقف الكِرام وبمحال الخِزْي أحَلَّه ، ومن أرمنيَّ كانوا يفْزَعون إلى نُصْرة نُصْرانيَّته ، ويعتمِدُون منه على ابن معمودِيَّته ، ومن عامِّيّ أجابهم لفْرَط عَمَاهوتَفْريط عامِّيته ؛ فملأ العيونَ سوادهُم الأعظَم ، ووراءهم بأسُ الله الذي لا يُرَدّ عمن أجْرَم ، فأمطرتهم السيوفُ مطرًا كانوا غُثاءً لسيوله الجَوَارف ، وعصفتْ بهم الأعنَّةُ عصْفًا كانوا هَبَاءً لهُوجِه العواصِف ، **(فظلَّتْ أعْنَاقُهُم لهَا خَاضِعِين)** [٦٨] ، وعُوتبت الأنفُس والأرؤس **(قَالتَا أتَيْنَا طائِعِين)** [٦٩]، وظلتْ قِحاف بني حامٍ تحت غِربان الفلا غِرْبانًا ، وشُوهدتْ ظُلُماتٌ بعضُها فوق بعضٍ أفعالا وألوانا ، وصفَتْ مواردُ السلطان من القذى ، وطَفِئ ذلك الفَحْمُ فلا يَجِدُ النِّفاقُ بعده ما تتعلّقُ به الْجذى [٧٠] ، وبُلِغت الغاياتُ في كَشْف كل أذى لا بضَرْب بموعِدٍ يقال فيه إذا .

وكاتب المملوكُ ، واسم أمير المؤمنين قد كُتِب سطرُه على جبين النقديْن ، وسُمِع لفظُه من فمْ المنبرين بالبلدين ، ومدّ كلُّ مِنْبر يدا بل يدين ؛ فحين سمع الناسُ قالوا حقّا ما قاله ذو اليَديْن ، وصارت تلك الأسماءُ دُبْرَ الآذان ووراء الظُّهور ، وحصَّلتِ المحبَّةُ العباسية سِرْاً من أسرارِ القلوبِ إذا حُصِّلَ ما في الصُّدُور ، والخلائقُ مبايِعةٌ متابعةٌ وافيةٌ بعهْدِه متوافِيَة ، داخلون في الحق أفواجًا ، سالكون منه شِرْعة ومنْهاجًا .

والحمدُ لله الذي جَعَلَ أمير المؤمنين إمامًا لخَلْقه ، ووراثا لأرضه ولم يَذرْ فوق الأرض مُنازعًا لحقِّه ، ولا مُناهبا لأرضه ، وارتجع له الحقّ الذي كان نادّا ، وردَّا عليه الأمر الذي لم يكن له غيرُ الله رادّا ، وبلّغ كلَّ مؤمن من إعلاء كلمةِ الإيمان به ما كان له وَادّا ، وأخّذَ بيد

---

[٦٦]- سورة الأنفال ٤٨ .
[٦٧]- أوشاب : الأخلاط من الناس .
[٦٨]- سورة الشعراء آية ٤ .
[٦٩]- سورة فصلت آية ١١ .
[٧٠]- الجُذى : القبسة من النار (الجمرة) .

انتقامه مَنْ كان عن سبيله صادّا ، والإسلامُ قد استتار كنَشْأتهِ ، والزمانُ قد استدارَ كهيْئَتِه ، والحقُّ قد قرَّ في نِصَابه ، والأمرُ قد فرَّ عن صَوَابِه ، فقد وفى اللهُ القرَار له بضمانِه ، وأخذ بيدهِ ما روى عن ابن عمه صلى الله عليه وسلم وأصفى من لسانه .

فالحمدُ لله الذي صدَقه وعْدَه ، وأوْرثَه الأرضَ وحْده ، وجدّد عُلاه وأعلى جَدّه ، وأسعدَ نجمَه ، ووعده نُجْحه وأنجحَ وَعْده ، وأورده وَصْفه وأصفى وِرْدَه .

المملوكُ ينتظرُ الأمثلةَ ليتمَثلها ، والأمانةَ ليتحَّملها ، والتقلياتِ المُطاعةَ ليتلُوَها ، والتشريفاتِ الشريفة ليَجْلُوَها ، والسوادَ ليَجْلِي الحَلَكَ [٧١] عن ضمائر المبْطِلين ، والسيفَ الحَالِي لحُكْمه في رقاب المعَطِّلين ، وللآراء الشريفة فَصْل برهانِها ، وفضلُ سلطانِها ، وأمرها الذي لا يُخْرُج حين يخرج عن عزِّ الملة وتوطيدِ بُنيانها ، وعزمها الذي يَرْفَع حين يُرْفع ظُلمة أدخانِها ، إن شاء الله تعالى .

---

[٧١]- الحلك : شدة السواد والظلمة .

الرؤية الموضوعية :

المتابع لحركة النص ومضمونه منذ مشهد البداية يلمس عن حق ملامح هذه المدرسة الكتابية التي أسسها القاضي الفاضل ، وأصَّل لها ، وبنى عليها ، ورسَّخ لقواعدها وسُبلهاوطرائقها ؛ وهي المدرسة التي تدفعه عن وعي إلى تقسيم رسالته عبر مقاطع مختلفة ومتباينة ومتداخلة ، تستشعر فيها بداية بُعد القسمات ، وتراخي المقاطع ، واتساع حركة النُقلاتبينها ، والولع بتكريس الخيوط الموضوعية المختلفة عبر رؤى شديدة الخصوصية في كل مقطع عن سابقه ، والانفرادة في المعالجة ، والخطاب بأنماط مغايرة ، والدوران في منطق التوليد والاشتقاق ، ليس من زاوية اللفظ فحسب ، ولكن من زاوية الرؤية الموضوعية والمناخية للنص ، فالفكرة تمهد لغيرها بأسلوب خاص بها، والقضية تتشقق من أخرى ، والرابط الفكري تربطه حبائل أخرى ، قد تبدو مغايرة ، وقد تبدو متناغمة ، ولذلك قد نجد في رسالته هذه كما في رسائله السابقة مدخله يحتضن أكثر من تمهيد ونقلة ، وأكثر من تقديم وفكرة ، ولكنه ختامًاينجح في منهجية تضفير المختلف علي سياج المؤتلف ، فيوحد بين مقاطع رسالته برابط خفي مستغلا في ذلك كله أبنيته الصياغية ، ومعجمه الفريد ، ومراعاة فن (التجاور اللفظي) إن صح التعبير.

ومناطه في ذلك كله حرصه على إذكاء المعنى عبر الأبنية الإيقاعية ، الصاخبة أحيانًا ، والخافتة أحيانًا أخرى ، ولذا فهو كثيرًا ما يستغل المساحات الصوتية ، ويدور في فلكها بدوائر الإقناع والمزايدة والمغالبة والتحليل ، معلنا انتماءه إلى منطقته الشعرية ، فنجد مساحات الصوت تغلب على النص ، وكأنه ينحاز إلى منطقته الشعرية حتى يتحول النص بأكمله إلى سبيكة واحدة ذات قدرة صياغية متماسكة تتوالى على اختلاف معالجاتها دون فواصل صياغية ، وهي حرفية صناعية برع فيها الفاضل ، وهو المتمرس في كتابة الرسائل الديوانية والرسمية والسياسية قرابة نصف قرن كامل ، والمترتب عليها انسياب صياغته الكتابية المسهبة غالبًا على أبنية تعبيرية فارقة في معجميتها ، يقصد من ورائها نواتج دلالية بعينها ، معتمدًا على فكرة توليد المعنى من المعنى ، حتى لتتحول لغته – وعلى حد قول د

. محمد عبد المطلب – إلى لغة زجاجية ، تسمح لنا باختراقها إلى مردودها المعجمي أو المعرفي ، بمعنى أنها تنقلنا من اللغة إلى العالم ، وليس من اللغة إلى الذات [٧٢] .

والنص كما نرى هو نص تبريري في خطاب سياسي رسمي من صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله بقلم القاضي الفاضل ، يخبره بفتح بلاد النوبة وتحريرها من عبادة الوثنية ، كعادة صلاح الدين في كل مناسباته ، موهمًا القاريء بأنه لا يتحرك إلا في ضوء رؤى خليفته في بغداد وسياساته ، ومراسمه وأوامره وأبجدياته ، فهو المملوك لسيده ، والسابح في فلك دوائره وأحلامه، والمسبح بحمده ، والمنتمي لعتباته الشريفة في مقر خلافته .

ومنطق التبريرهنا هو استشراء الباطل بين أهل الجنوب ، والوثنية والكفر والإلحاد والشرك ، ومحاربة دين الله ، ورفع السيوف في مواجهة الحق والدين الجامع ، والتداعي عليه ، فما كان من المملوك (صلاح الدين) إلا أن حصدهم حصدًا ، كحصد الحشيش ، وأوجعهم قتلا كقتل البعير ، وزلزل الأرض من تحتهم ، وعطَّلَ منابرهم ، وعجَّل بتداعيها ، وعفا عمن آب وآمن ، وأعاد إليهم منافعهم ، ونزع الحقد من قلوبهم ، فلم تعد لها باقية ، ولم يُسمع لها لاغية ، وجمع أهل الجنوب على ملة واحدة ، وعَمدَ إلى محاضرهم فجمَعَها،وإلى منابِرهم فرَفعها، وإلى جمعتهم فأطاعَ من شَرَعها، ووحد صلواتهم على وتيرة الجماعة ، وأعلمهم بأنه ليس لله غالب ، وأن المُلكَ لله وحده ، وأن الويلَ لمن تجاوز أمْره وحَدَّه، حتى أطاعوه ، فعادتْللملَّةأعيادها،واخضَرَّتللمنابرأعوادها،وأُنْجزَللأمةميعادها.

والرسالة كما نراها رسالة طويلة ، وهذا ديدن القاضي الفاضل حينما يكتب رسائله إلى الخليفة في بغداد ، وخاصة رسائل الفتوح حيث يمعن إلى الإسهاب فيها وفي التقديم لها ، والإطناب في التبرير لحركة الجيوشوالإطالة في وصفالمعارك ، ولدور القائد صلاح الدين فيها ، ومآلها وزمانها ومكانها ، على نقيض ما كان يبعثه إلى وزراء السلطان أو أمرائه في

[٧٢] - بلاغة السرد – د . محمد عبد المطلب – إصدار الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة ٢٠٠١ – ص ٢٦٠ .

الولايات والدول وأرباب المناصب فكان يختصر إلى حد بعيد ، ولا يطنب فيها إطنابا شديدًا ، ولا يوجز فيها إيجازًا يخل بالغرض [٧٣].

إذن فالإطناب كما الإيجاز سمة رئيسة في رسائل الفاضل ، فهو يجمع بينهما في بنياته السردية ، فرسائله الديوانية يغلب عليها الإطناب ، ورسائله الإخوانية يغلب عليها الإيجاز ، وميله إلى الإطناب في رسائله الرسمية سمة عامة من سمات إبداعه وفنه [٧٤] ، وهذا ما دفع أنيس المقدسي لأن يبدي ملاحظته على هذه السمة بقوله : (ويمتاز الإنشاء في رسائله الديوانية ببسط الكلام في مكاتباته للخلفاء والملوك ، ويختلف أسلوبها بحسب أغراضها) [٧٥] ، وتتبدى الظاهرة الإطنابية عنده من المقدمات ومراحل التمهيد والتوطئة ، وإن كان أهم ما يميزه فيها تجنبه لسياقات الحشو والتركيب المبالغ والمعنى المتوار .

مقدمة الرسالة :

وإذا بدأنا بمدخله ومقدمته ، فيستبين لنا على الفور مفاتيح كتاباته وأدواته ودواله ، وعلى رأسها إرساء فكرة التضمين القرآني والتناص معه شكلا وموضوعًا في عالمه النصي منذ المدخل الأول تماشيًا مع منهج قائده وسلطانه وخليفة المسلمين ، وتزاوجًا مع فكرة (التبرير للفتوحات) من زاوية نصرة الدين وإحقاق الحق وإعادة الخارجين إلى حظيرة الإيمان لإرضاء رمز الخلافة في بغداد ، باعتبار أن هذه النصرة الإيمانية هي منهج حكمه ، ومرسى سلطانه ، ومعتقده الأصيل ، وهي ما تتناغم وتتوافق مع منهج بطلنا الرئيس في هذه الرسالة وغيرها من رسائل الفتوحات ، ومن ثم نلمس فكرة الترويج لها عبر مراحل النص ومقاطعه لا تتوقف على الإطلاق ، بل تتمادى وتتماهى وهو ما فعله في كل رسائل الفتوحات ، حتى يستبين لنا القاضي الفاضل وكأنه المؤلف الضمني implied author للعمل ككل أو الراوي العليم أو الأمين ، وأن صلاح الدين هو المؤلف الحقيقي والمحرك الرئيس ، وحجر الأساس في تشكيل عالم النص وهويته ، فالبطل الرئيس في رسائل القاضي الفاضل كلها في الفترة

---

[٧٣]- راجع رسائل القاضي الفاضل في الحرب والسلام – اختيار موفق الدين بن الدياجي – تحقيق د . محمد نغش – الطبعة الثانية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٤ م ص ٥٤ .

[٧٤]- رسائل القاضي الفاضل ؛ جمع ودراسة – د . محمد عبد الرحمن عطا الله – ص ١٦٢.

[٧٥]- تطور الأساليب النثرية – د . أنيس المقدسي – الطبعة الرابعة – دار العلم – بيروت ١٩٦٨ – ص ٢١٨.

الأيوبية هو صلاح الدين بلا جدال ، والبطل الضمني هو كاتبه ، لذلك يتحرك النص عبر البطلين لخدمة بطل ظاهر وخلفيفي آن واحد ، وهذا البطل الظاهر والخلفيهو الخليفة البغدادي في عاصمة الخلافة في بغداد ، الذي يظهر ويتجلى في أدعية التحية والتبجيل في البدء والختام في جل نصوص الرجل ، ويستغل كمبرر أو ستار لديمومة فكرة (الفتوح) طيلة النص بشكل خفي ، وفي معظم نصوصه ، باعتبار أن حركة الفتوح لازمت عهد صلاح الدين طيلة حكمه ، وكانت محركًا حقيقيًا ، ومبعثا لرسائل الفاضل عبر أكثر من نصف قرن قضاها في حمى سلطانه ورفيقه وظله صلاح الدين .

إذن تعدد مثل هذه الشخوص ومنذ مدخل النص يأذن بكشف حركة الأدوار ، وكأن النص هنا يشي بأن مهمة إنتاج السرد ليست مهمة شخص واحد ، ولكنها مهمة أكثر من شخص ، ومن هنا أتى هذا التبجيل بالثناء على رمز الخلافة العباسية (الخليفة المستضيء بأمر الله) بمثل هذا التكاثف الدعائي والمرتبط بالوحي التناصي لآيات القرآن الكريم ، وبمعاني الثناء والتبجيل المبالغ ، وكأن البطل الرئيس هنا وعبر بطله الضمني يكرس هذه المعاني ويجسدها حفاظا على دوره المقصود ، متخذا من بطله البادي والخفي ستارًا للتمهيد للحديث عن فتحه لبلاد النوبة ، وهو في الوقت ذاته يمنح للمؤلف الضمني فرصة لإظهار أفكاره وقدراته ومواقفه وطاقاته اللغوية والفنية[٧٦]، وربما كانت أهم هذه الأفكار فكرة التكريسوالتقديم لمبررات الفتح لبلاد النوبة أو لغيرها ، انظر لقوله : {.... (ولقد كتبنافيالزبورمنبعدالذكرأنالأرضيرثهاعباديالصالحون) ، (سلامقولمنربرحيم) ، (فروحوريحانوجنةتنعيم) وصلاةٌيتبعهاتسليم،وكأسٌيمْزجُهاتسْنيم،وذكرٌمناللهسبحانهفيالملأالأعلى،ورحمةاللهوبركاتهمعلومة منالنشأةالأولى،علىمولانا الإمامالمستضيءبالله،المُستضاءِبأنوارِه،المستضافبداره،الداعيإلىالحقوالِ بطريقٍمستقيم،الراعيللخلقكمايَرْعىالنِسيمالنَّسِيم،العامِفضلهُ،التامِعدلهُ،المطروقِمَوْردُفنائِه،المصدوقِفي موْردِثنائِه،المحقوقِمنكلوَلِيِّبولائِه،ابنالسادةالغُرّ ،والقادرةالزُّهْر ،والذَّادةالحُمْس،والشادةظلحقعلىالأسّ،سُـ

[٧٦]- السرد في مقامات الهمذاني – د . أيمن بكر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٩٨ م – ص ١٥٦ .

قاةِالكَوْثر ،وزمزَموالسَّحاب،ووُلاةِالموْسِموالمَوْقِفوالكِتاب،والموصولِالأنسابإذائُفِحفيالصورفلاأنساب،و الصابرونعلىحسابأنفُسِهم،فهمالذينيُوَتوْنَأجْرَهمبغيرِحِسَاب... إلخ)

فهذا المقطع هو التقديم الأول أو المدخل الأول لنصه الطويل ، أو ما يمكننا أن نسميه بالعتبة النصية ، وفيه وكما نرى يكثف من كَمْين ؛ كم الدعاء والتحية والسلام ، وكم الوصف بكامل مفرداته ، فكم الدعاء والتحية يوظف له كل إمكانات التضمين القرآني ، والتناص معه فـ (**سلام قول من رب رحيم**) وما يوازيه من المعاني المتقاربة كقوله : **(وصلاةٌيتبعهاتسليم،وكأسٌيمْزجُهاتسْنيم،وذكرٌمناللهسبحانهفيالملأالأعلى،ورحمةاللهوبركاتهم علومةمنالنشأةالأولى،علىمولانا الإمامالمستضيءبالله)** ونلحظ أن كل أدعية التحية والسلام في البدء إنما هي منصوصة بجمل الإخبار – على غير العادة – وكأن الرجل قد أخضعها لمقاصده الواعية التي تتشابك فيها الدلالات ، أو تخيرها من مخزونه اللغوي ليقدم خطابا خبريًا أو نفعيًا في عفوية تختلف فيها الدلالات من لفظة إلى أخرى [٧٧] ، وهو ما أعطاها صفة اليقين في صدق نواياها ، على نقيض ما توحي بها دلالات الخبر في الأصل ، أوكأنه قد وظفها في وظيفة جديدة في شكل البنية وطبيعة الأداء فيها ، وفرض الخلفية الدينية على سياقها النصي والبنائي ، وهي تمثل في أدب القاضي الفاضل لونا من ألوان النوعية الكتابية ، فمداخله بهذا الشكل المكرور في نصوص رسائله شكل إجرائي مستدام ، لم يكن في مرة من المرات وليد اللحظة أو وليد الموقف ، وهذا الذي يدفعنا إلى التوافق مع مقولة الدكتور شوقي ضيف في الحكم على بنية مداخله ، ورسائله عامة بأنها تمثل خصائص فنه النثري التي قد استوت وتهيأت له مبكرة [٧٨]، ولذلك – وكما أشرنا – مقدماته تسبقها مقدمات ، ومداخله تسبقها مداخل ، ولم تكن في وقت من الأوقات مطردة أو مضطردة أو حاضرة على استحياء ، لكنها تأخذ الشكل المطاطي الإطنابي التراكمي المزدوج ، ويفسره بعض دارسيه بكونه من ضرورات اللحظة أو الفترة (فالإطناب في الدعاء في المداخل لهذه الصورة المكثفة كان ضروريًا فهو تعبير عن الوحدة والتماسك وتلاحم الصف ،

[٧٧]- البلاغة العربية قراءة أخرى – د . محمد عبد المطلب – الشركة المصرية اللبنانية العالمية للنشر (لونجمان) – القاهرة ١٩٩٧ م ص ١١٥ .

[٧٨]- عصر الدول والإمارات – ص ٤١٣ .

وهو ما سعى إليه صلاح الدين ، الذي سعى طيلة عمره كله لرد الخلافة إلى الحظيرة العباسية بعدما استقالت عنها في زمن الفاطميين) [٧٩]ولذا دامت لوحات المداخل كلها في الدعاء والإشادة بالخليفة العباسي في بغداد في جل رسائل الرجل من أجل وحدة الأمة ، وإعادة المذهبية السنية إلى طبيعتها الأولى في مصر وبلاد الشام بعدما سقطت دولة الطائفية الشيعية الكبرى دولة الفاطميين .

وبعد لوحات الدعاء تتجلى لوحات الوصف العريضة للخليفة فهو (المُستضاءِبأنوارِه،المستضافبداره،الداعيإلىالحقوإلىالطريقِمستقيم،الراعيللخلقكمايَرْعىالنَسِيمالنَّسِيم،الـ عامِفضلهُ،التامِعدلهُ،المطروقِمَوْرِدُفنائِه،المصدوقِفيمورِدِثنائِه،المحقوقِمنكلوَلِيِّيولائِه،ابنالسادةالغُرّ ،و القادرةالزُّهْر ،والذَّادةالحُمْس،والشادةللحقعلىالأسّ،سُقاةِالكَوْثر ،وزمزَموالسَّحاب،ووُلاةِالموْسِموالمَوْقِفوا لكِتاب،والموصولِلأنسابإذانُفِحفيالصورفلاأنساب،والصابرونعلىحسابأنفُسِهم،فهمالذينيُوَفونَأجْرَهمبغ يرِحِسَاب... إلخ) .

والمتابع لمثل هذه الأوصاف المبالغة يسترعى سمعه قبل استيعابه هذا الجرس الإيقاعي العالي ، المتمثل في مسجوعاته الصادعة والمتغيرة والكاشفة عن معجمه المتجدد ، ويبدو أنها أيضًا رسالة ؛ فمثل هذه البنية الموسيقية المكرورة ، بهذا النمط المكين ما هي إلا صفة توسيلية تستحيل فيها الموسيقى إلى فكرة تحمل صدى لعاطفة النص بأكمله واندفاعه ، خاصة ونحن أمام نص من نصوص الفتوحات ، بدأها بهذه التحية الحماسية لرمز الخلافة ، وهو المتلقي نفسه ثم غلفها بأطراف من مفردات المعنى المقصود [٨٠] ، وهو ما جاء متماشيًا مع تنامي نبرة الخطاب عبر بنيات النص ، فهذا الحماس في الوصف ، والذي دفع الإبداع إلى تصوير رمزية الخلافة برمزية القداسة والطهر ، فالخليفة المستضيء بالله هو (ابنالسادةالغُرّ،والقادرةالزُّهْر،والذَّادةالحُمْس، سُقاةِالكَوْثروزمزَموالسَّحاب،ووُلاةِالموْسِموالمَوْقِفوالكِتاب،والموصولِلأنسابإذانُفِحفيالصور، والصابرونعلىحسابأنفُسِهم،فهمالذينيُوَفونَأجْرَهمبغيرِحِسَاب) وكسا كل هذه المعانييدرجة من

[٧٩]- رسائل القاضي الفاضل – جمع ودراسة ص ١٦٣ .
[٨٠]- راجع الأسس النفسية للإبداع الفني – د . مصطفى سويف – ط دار المعارف المصرية – القاهرة طبعة ١٩٩٢ م ص ١٥ .

درجات الشمول ، لاحظ قوله وقد أكسب صفات الخلافة والخليفة صفات التعريف في بنيات اللغة (العامِفضلهُ،التامِعدلهُ،المطروقمَوْردُفنائِه،المصدوقفيموْردِثنائِه،المحقوقمنكلوَلِيِّبولائِه) وهي صفات كفاية لا تحتاج إلى تفصيل ، ولا شريك في الفضل ، فالنص إذن رسالة حقيقية معروف مرسلها ، ومستقبلها ، ومنشئها ، ومتلقيها ، وهي رسالة جاءت ضمن استراتيجية نصية لها رؤية جوهرية حقيقية تتناسب مع فكر (الاعتبارات) ؛ اعتبار شخص المتلقي ، وهو بطل الخلفية النصية ، وواحد من أسباب مولد النص ذاته ، واعتبار شخص البطل الحقيقي المحرك لكل هذه الأطياف ، صاحب الفتوحات المؤثرة ، وهذه الاعتبارات مجتمعة جاءت مدفوعة بتراكم الأفكار لدى البطل (الضمني) وهو الكاتب نفسه ، ومن ثم جاء العمل في مجمله دائرًا في حومة من الحومات التأثيرية ذات الدلالة والمقصد .

والاستراتيجية النصية في المقدمة وفي متن النص ذاته والنابعة من منطقه الكتابي ، وهو المنطق المعتمد على دقة اختيار الألفاظ عند الفاضل ، ودقة اختيار الألفاظ عنده في المداخل وفي متن النص راجعة لوعيه البلاغي ، وإلا ما كانت رسائله قائمة على حركة الصوت ، لاحظقوله وقد ابتنى مدخله كله على فكرة التنغيم والتوليد الموسيقي ودقة اختيار الألفاظ :

(المُستضاءِبأنوارِه،المستضافبداره،الداعيإلىالحقوالطريقِمستقيم،الراعيللخلقكمايَرْعىالنسيمالنَّسِيم،العامِفضلهُ،التامِعدلهُ،المطروقمَوْردُفنائِه،المصدوقفيموْردِثنائِه،المحقوقمنكلوَلِيِّبولائِه) إذن فدقة اختيار اللفظ ، والقياس على وتيرة النغم ، والبُعد المعجمي هي محاوره في بنيته اللغوية ، ودقة اختيار اللفظ هي من صنيع البلاغة على حد رأي دكتور منير سلطان (فالبلاغة حال تكوّنها الكلمة حين يحسن اختيارها ، ويقوى أداؤها ، وتقدر على الايحاء ، ولكي يقوى أداؤها يجب أن تتخلص من العوائق التي تجعل الأداء ضعيفًا ، أما قدرتها على الإيحاء ، فتنشأ عن العلاقات التي تعقدها فيما بينها وبين جارتها ، والكلمة لها صفاتها الذاتية حين تجاور غيرها ، ولها جمالها الذاتي المحدود بحجمها ، ولها جمالها الذي يضفي عليها إذا سلكت مع غيرها) [٨١]، ولذلك نشعر كثيرًا أن الفاضل يبتكر كثيرًا في صناعة اللفظة أو في ابتناه للغة

[٨١]- بلاغة الكلمة والجملة والجمل – د . منير سلطان – منشأة المعارف – بالإسكندرية – ١٩٩٩م ص ٢١ .

عبر منظومته الموسيقية ، وهي المنظومة القادرة على التجديد والتوليد الاشتقاقي ، ودائمًا ما تكون لغته تعبيرًا عن وعيين ؛ الوعي بالمدلول النفسي ، والواعي بمدلول التراتب ، لاحظ على سبيل المثال فكرة التراتب والوعيبإيحاء المجاورة اللفظية ونواتجها الدلالية وإشاراتها ، وكيف أنها تشقق الأفكار مع ابتناء اللفظ وموسيقاه ، فالخليفة المستضيء في المدخل هو (المستضاء بأنواره) وهذا الفيض النوراني لعزته وكرمه وجوده هو الذي ينقلنا إلى ما يتولد عنها من أفكار ونواتج ودلالات ، فمادام هو يستضاء بأنواره فهو (مُستضاف في داره) يشعرك بكونك صاحب البيت وهو ضيفك ونزيلك ، ولأنه (الداعي إلى الحق) فطبيعي وبدهي أن يكون (الراعي للخلق) ، ومادام هو (العام فضله) فهو (التام عدله) .. إلخ ، إذن فهذا التراتب ما هو إلا انتماء النتائج إلى منتجها الأول ومُفعِّلها ، وكأنها عملية استدعائية تتجدد على إثرها حركة اللغة ، ولذا يكون تشكيل اللفظ عنده ليس نابعًا فقط من دقة الاختيار ووحيه ، إنما نابع من تطويع اللغة لتعبرعن أبعاد المدلول الذهني المقصود [٨٢] ، فالسياق في الأصل سياق لغوي يتبدى دوره من خلال النسق الجواري ، والدوران حول محاور الفكرة بتركيز ، والربط بالنسيج العام لحركة النص .

التقديم الثاني :

وعلّ هذه الاستطالة في المدخل وتوظيف أدواته اللغوية والنغمية في سياق هذا المدخل هي التي قادته إلى فكرةتناميدائرةالوصفلتنتقل من الخليفة الرمز إلى السلطانالحاكم في مصر إلىصلاحالدينفسه ، من بطل خلفي إلى بطل رئيس عبر راويه العليم ، وعبر مقدمته الطويلة التي تنقلك من **مقدمة** إلى **تقديم** . ومن **تقديم** إلى **تمهيد** في ضوء الرؤية التبريرية لفتح بلاد النوبة ، وهذا التقديم الثاني هو تقديم وصفي كسابقه بكامل دلالاته اللغوية والفنية والاعتبارية ، يحركه معنى من معاني إعلان الولاء للخليفة العباسي ، وللعتبات الشريفة ، وهذه طبيعته في جم رسائله الديوانية ، ومنه يخلص إلى إسباغ مدلولات الوصف على هذا البطل الرئيس ، والمحرك الفعلي لسببية النص عبر مقطع سردي طويل تحركه دوائر النعوت المتوالية التي تكرسمعنى من معاني الولاء لقطب الخلافة في بغداد ، تستطيع

[٨٢]- نظرية المعنى في النقد العربي – د . مصطفى ناصف – دار الأندلس للطباعة والنشر – بيروت ١٩٩٣ م ص ٢٠ .

أن تستنتج من نقلتها كيف نجح في مقدمته الثانية في الربط والتضفير بالمقدمة الأولى عبر التركيز على معنى الانتماء لهيكل الخلافة السنية في بغداد ، ولشخص خليفتها ، وكأنه بذلك لم ينفك من مقدمته إلا إلى تقديم رابط بين المقدمتين ، وجامع بينهما ، وهذه طبيعة القاضي الفاضل في رسائله الرسمية يطيل في المقدمات ، ليخرج بمدلولات متأخرة تستبين وتتكشف في متن النص ذاته ، يقول في تقديمه الثاني :

(

مملوكُالعَتباتالشريفةوعبْدُها؛ومناشتملَعلىخاطرِهوَلاؤهاووُدّها،وكانتالمشاهدةُلأنوارِهاالعليةِالتييوَدُّها،و منيَقرُنبفرضاللهسبحانهفَرْضها،ويُسابقُبطاعتِهإلىجنةٍوصفهااللهتعالىبقوله : (وجَنّةعَرضُهَا) : يَلْثُموجهَتُرابها،ويربعلىبُعْددَارِهَاالأنوارَالتيتُربهبها،ويقِفُلَدَيْهاوقوفَالخاضِع،ويَضَعأثقالَالآثامعنظهرِهمنها بأشرفالمَوَاضِعللواضعِ،ويُخْبِتُإليهاإخباتَالطائحالطائع،ويرجوفضْلهَارجاءَالطامحالطامع،ولولاأنالك تابَحجابٌبينهوبينالمهابةالتيتحُولُبينالمرءِوقلبهِ،والجلالةِالتيهوفيتعظيمهاعلىنُورِرَبِّه،لكانخاطِرُهفيقبضةِالهَلَعِأسيرًا،ولانْقلبَإليهالبصرُخاسِئًاحسيرًا،لكنَّقلمَهقدتَشَاجعَ،أنكانلسانهُعنالإبانةِ)

فهاهو من الزاوية الموضوعية يعلن ويكرر ولاءه عن طريق – راويه العليم – ليس للخليفة العباسي فحسب ، ولكن للعتبات الشريفة للخلافة ذاتها ، والتي اعتبر نفسه عبدًا لها ومملوكًا لسطوتها وساحاتها وأنوارها العلية وسُبلها الحاكمية ، ويقرن – كعادته – بين فرض الولاء لله سبحانه وتعالى ، وفرض الولاء لها ، آملا أن تكون تلك الفرضية سبيلا لجنة عرضها السموات والأرض متناصًا مع النص الديني ، ومضمنا إياه ، ومتماشيًا مع سننه ، من زاوية الإقرار والخضوع للمقاصد الثابتة ، ومنها مقصد طاعة الأمير طاعة الطامح الطائع – على حد تعبيره – وكلها أدوات كما نرى في هذه المقدمة الثانية ، أو النقلة الثانية تدور في فلكه التبريري لفتوحاته ؛ ومنها فتح بلاد النوبة الذي نحن بصدده ، موظفا مخزونه اللغوي في لعبة الإقناع والتبرير ليقدم خطابًا إخباريًا أو نفعيًا في لغة يظن فيها العفوية ، أو تختلف فيها الدلالات من لفظة إلى أخرى في خطوط منفصلة ، ولكنها في النهاية تجتمع على مدلول واحد ألا وهو إثبات معاني المهابة والجلالة والتسليم للعتبات الشريفة ، والتي لولاها – على حد قوله – ما تشاجع قلمه ، وما نطق لسانه عن الإبانة والإفصاح لما هو آت من مبررات فتحه لبلاد النوبة .

ومن الجلي ومن خلال هذا النص أن طريقة القاضي الفاضل في مكاتباته ورسائله تستشعر فيها كثيرًا ولعه بتكريس معاني الصفات والنعوت وصيغ الحال على بنياته الخبرية التي لم يستغن عنها طيلة مقاطع النص وفواصله ، فهاهي :

(العتبات الشريفة ، والأنوار العلية ، وها هي وقفته أمامها وقفة الخاضع ، والطائح الطامحالطائع ، وهاهي ألفاظ المهابةوالجلالةوالتعظيم ، وهاهي خشيته من أن يسقط في قبضة الهلع أسيرًا ، وأن ينقلب إليه البصر خاسِئًاحسيرًا ... إلخ .

ومثل هذه البنيات والعبارات ، وسائر ما يجري مجراها ، مما يفرد فيه اللفظ ويقرن بالنعت والصفة ، وينسب فيه الفضل و المزيةإلى وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها خاصة أن هناك دلالة حقيقية ، تبرجت في صورة هي أبهى وأزين وأنقى وأعجب ، وأحق أن تستولى على هوى النفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب ، وأولى أن تطلق لسان الحامد والشاكر ، فمثل هذه الخصال لا يبتغي من ورائها – وعلى حد قول عبد القاهر الجرجاني – إلا أن يأتي فيها المعنى من جهة هي أصح لتأديته ، ويختار لها اللفظ الذي هو أخص بها ، ويكشف عنه ، ويتم له ، ويكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية [٨٣]، دونالاهتمامكثيرًابفكرة توالحركةالمعنودورانهفيفلكمتقارب، ولذا نستعر كثيرًا في تركيب اللغة الخبرية التراكمية هنا بعيدًا عن المفردات اللفظية النعتية أو الحالية وما فيها من علاقات ، أن المزية هنا على الرغم من ذاتيتها إلا أنها تأتيها من دورها في إنتاج المكونات الدلالية ، أو ما يمكننا أن نسميه بالدلالة النصية [٨٤] .

والنصية هنا في التقديم الثاني تدور كذلك في مسار التوافق الموسيقي السجعي ، وهو المسار الذي أكدنا عليه سابقًا بأنه يحمل رسالة توازي رسالة المعنى ، وتُقدم له ، فخروج مفردات التنغيم والسجع ممدودة في خواتيمها كقوله :

(عبْدُها–وُدّها–فَرْضها–عَرضُهَا–تُرابها) أو أن يأتي المد داخليًا على نمطية : (الخاضِع– الواضع–الطائح– الطائع – الطامح – الطامع) ما هي إلا علامات لمعنى الرضوخ

[٨٣]- راجع دلائل الإعجاز – لعبد القاهر الجرجاني – تحقيق وقراءة محمود محمد شاكر – دار الخانجي – القاهرة ١٩٨٤ م ص ٤٣ .

[٨٤]- راجع البلاغة العربية قراءة أخرى ص ١١٦ .

والاستسلام بل والرضا بأحكام الخلافة وسياساتها في مقرها بعاصمة الخلافة العباسية ، والتي رمز لها بـ (العتبات الشريفة) ، وهنا يأتي الرابط والدال في قضية المعنى ؛ وهو أن الرجل (البطل الرئيس) وعبر راويه الأمين وهو يقدم لمعنى الفتوح ويبرر له يقر بأن سلسلة فتوحاته ما هي إلا امتداد لأحكام الخلافة في بغداد وسياساتها الراضخ لها ، ليكسب بذلك ودًا مُعلنا أو غير معلن ، مادمنا في حلقة التقديم والتبرير لمرحلة الفتح التي ستتضح في مسار الرسالة عبر مقاطعها المتوالية ، وكأن التنغيم الموسيقي المسجوع هنا جاء انعكاسًا لحركة ذهنية داخلية ، أردفت المعنى السابق ، واعتمدت على مجموعة من المواصفات البلاغية الموسيقية التي جسدت هذه الحركة الذهنية ، وهذا ما أهمله كثير من البلاغيين ، وانصرف جهدهم إلى المستوى السطحي تفسيرًا وتأويلا ، وللإطار الشكلي متجاوزين البعد الذهني ، ومتناسين أن خطوط هذه الشبكة الموسيقية لم تكن في الأصل عفوية على الإطلاق بل جاءت في رابط موثوق بوظيفة المعنى .

ومن تقديم إلى تمهيد :

ولا يفتأ الفاضل في رسالته أن ينتقل إلى صلب موضوعه بصفة مباشرة أو جلية أو حاضرة ، وهو الراوي الأمين ، دون أن يكرّس طرقه في الكتابة والتأليف والتحليل ، ومنها طرقه الاسهابية والإطنابية ، فهو حريص على أن ينقلنا من تقديم إلى تقديم ، ومن تقديم إلى تمهيد ، في تبادلية نصية واعية ومقصودة ، وهذا ديدنه في رسائل الفتوحات – كما أجمع دارسوه – وكأن قضايا الفتوح وهي العامل الأكبر والمحرك الرئيس للنصية في رسائله ، تمثل ما يمكننا أن نسميه فنيًا بـ (بنية العمق) التي تحتاج إلى استحضار وتقديم وتمهيد ، وحرصه على فكرة تأخير هذه البنية إنما نابع من وجهات عدة ؛ منها إنه يستحضرها عبر مراحل تراتبية يحرص من خلالها إلى تحويل الإشارة المبهمة في النص إلى إشارة أوصورة مرئية بصرية ، خاصة وأنه عايش الفتوحات مع سلطانه صلاح الدين في مرات عدة ، وعاينها معاينة المحاربينوشارك فيها ، ويكفيه أنه من شهود موقعة حطين وفتح بلاد المقدسمع سلطانه الفاتح ،كماصحبصلاحالدينفيوقعةالرملةوغيرها ، ولذا فهذه المعايشة تركت أثرًا جليًا على لغة إبداعه النصي ، فنلمس عنده هذا التحول من التقديم المدحي الطويل والمتراتب إلى التحول إلى لغة الصورة التي تتداخل مع وحي الرؤية ، لتتيح في النهاية للمتلقي الدخول إلى

المتن النصي للرسالة الطويلة ، لاحظ معي كيف انتقل من مقدماته إلى عتبة التمهيد ومن ثم إلى عمق النص معتمدًا في ذلك كله على تحريك الدال الغائب ، وأقصد به تحريك بنية العمق النصي التي تأخرت كثيرًا من منطقة (الابتداء) إلى منطقة (الإخبار) أو (الخبرية) ، والتقدير هنا أن ينتقل النص من حالة (الثبات) التي كان عليها في القراءة الأولى إلى حالة (الحركة والتجدد) [٨٥] ، بتأثير حركة الفعل سواء كان ماضيًا ، وهو ما يتناسب مع فكرة (التبرير) أو مضارعًا وهو ما يتناغم مع فكرة التجدد والتغيير .. يقول :

إناللهقدرَفعمِلةالإسلامِعلىالمِلل ،وكَفَلنَصْرَهاوكفىبماكَفل ،وحميمُلْكَهاوحَمَل ،وجَعَللهاالأرضَ ،فيأيديالمُخالِفينودائع ،ومكَّنيَدَهمنأعناقهمفهيإماتَعْقِدالأغلالأوتصُوغالصنائِع ،والحقّبهاقائمُالعَمُود ،والسيفُالكِفايةُلازِمُالغُمُود ،والبشائرُتُمَسّكالصباحوتُخَلَّقُالدُّجى ،والخيلُعلىطُولماتشتَمِلالوحا ،تنتَعِلالوجى ،والأيامُزاهرة ،والآياتُباهرةٌ ،وعِزَّةُأوليائِهاقاهرة ،وذِلَّةُأعدائِهاظاهرة ،وعناياتُاللهلديْهامتواليةٌمتظاهرة ،إذاتغرَّباسمُهيومًاعنمِنْبرٍأُعيدإليهوطنِهغدا ،وإذاأُوقِدَتْنارُفتنةٍ ،فيمعصيتهاأُوقِدَتْفيطاعتهانارُهُدى ،وقدكانالنيلُقِدْمافرتْعنالفُراتِأبناؤهُ ،وتَحصَّنتعنغُلاالمؤمنينعنهفلميتغلْغَلإليهاماؤه ،وكادِتالسماءُتُعنيهبمطرِها ،والأرضلاتُوشِّيهبزَهَرِها ،والأعناققدتقاصرَدُونالراجينبدومعصِها ،والقلوبُقدلاذتْبأستارالجدارمعضها ،والأوثانُمنصوبة ،والآياتمغصوبة ،والتيجانبغيرأكفائِهامنالهاماتمَغْصُوبة ،والدِّينأديانا ،والمُذَكرونبالآياتيَخِرِّونعليهاصُمْـاوعُمْيانا ،والعادلُونباللهقدوَطّنواألسِنَةًوصَرحواعقائد ،والمعتدونقدأضلُّوافِعالاوضَلُّوامَقاصِد ،وكراسيُّخلافةاللهقدأُلْقِيَعليهاأجسادٌكانتتقْعُدمنهامَقاعِد ،ومنابرُكلماتِاللهقدكادكَيْدهميأتيمنالقواعد ،وجَرَتْعلىبُنُوةالبُنُوةأشدُّنَبْوه ،وقصُرَتالأيديفلاحَدُّسَوْطولاحدُّسَطوة ،ثمقستقلوبٌ (فهيكالحِجَارةِأوأشدُّقسْوةً)

،وغرَّتالأيَّاموماوعدت ،وأوردتالهِمَمُوماأصدَرَتْ ،وطغىطُوفانُالطُّغيانولاعاصِمْ ،وسمابناءُالبُهْتانولاهادم ،وضاقتالصدُور ،ورحَلتْبِغليلهاإلىالقبور ،وظُنَّأنطيّدولتهممعدُوقٌبالنُّشور ،حتىإذاجلاَّهااللهُلوَقتِها ،وأنْجَزجموعَالضلالإلىميعادشتَّها ،وأراهمأيةمَعْدِلته (ومانُريهممنآيةٍإلاهيأكبرُمِنْأُخْتِها) ، (جاءَالحَقُّوظَهَرَأمرُاللهوهمْكارِهُون) ، (وحبِطماصَنعُوافِيهاوباطلٌماكانُوايَعْمَلُون) ... إلخ)

---

[٨٥]- راجع كتاب بلاغة السرد – د . محمد عبد المطلب – ص ٢٥ .

فحركة الأفعال في النص التمهيدي فتحت السياق الموضوعي ليتناغم مع فكرة التبرير لموضوع الرسالة الرئيس ؛ فتح بلاد النوبة ، ولذا جاءت الحركة التداولية للفعل الماضي في مدخل النص التمهيدي بقصد اجترار الأصول أو استدعاء الثوابت ، تمهيدًا للحديث عن موضوعية الفتح ومبرراته ، ولذا جاء الخطاب في النص أقرب إلى لغة الخطابة محافظًا فيه الفاضل باعتباره راويًا هنا على حضوره الصياغي ، فهاهي صيغه تشير بلغة حماسية زاعقة إلى أن الله قد رفع ملة الإسلام على الملل ، وكفل نصرها ، وحمى ملكها ، وجعل الأرض في أيدي المخالفين ودائع .. إلخ ، وهو بذلك المدخل إنما يؤطر لعقدته ، أو يمهد لها مستغلا طاقاته في الإطناب والحكي والتحليل ، واللعب على تداولية الحركة للفعل الماضي التي تستحضر الثوابت والقيم ، إلى أن يصل بنا النص إلى عقدة العمل أو إشكاليته حينما يشير الراوي الأمين هنا إلى استشراء الفتن في بلاد النوبة ، وهي الفتن التي صار معها الدين أديانا ، والمذكرون بالآيات يخرون عليها صمًا وعميانا ، والمعتدون قد ضلوا وأضلوا ، وقصرت الأيادي ، وقست القلوب ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وطغى طوفان الطغيان ، وسما بناء البهتان ، وضاقت الصدور .. إلخ ، وكأن الفاضل هنا ، وهو الراوي والمؤلف الضمني للعمل اختار لنفسه أن يدور في فلك تمهيدي رائع ، قام فيه بدور المُحلل للمواقف الأخلاقية والدينية والأيديولوجية للمأساة في إقليم النوبة بعد أن فسد فيه الحكم ، وتقطعت بالهتان والضلال أوصاله ، وآثر في ذلك كله أن يتحدث بلسانه دون الاضطرار إلى الرجوع إلى البطل الواقعي ، وبالتالي نستشعر بأن الذات التي تظهر في هذه الرسالة مسئولة عن المواقف الأخلاقية والدينية كما رأينا ، وفي اختيار العالم السردي ، والتوافق التركيبي للمواقف والأحداث ، ولذلك فقد نجح في أن يدفع القضية الدينية والأخلاقية لتكون حجر الأساس في تشكيل عالم النص [٨٦] .

ثم إذا كان الفاضل قد نجح في التمهيد لقضية الفتح بالمبررات اللازمة ، والمصدرة للأزمة والمقدمة للعبة الأدوار ، وأشعرنا بأنه الراوي والبطل في آنٍ واحد ، فإنه بذلك قد حاصر منظومة سرده ، وتمكن منها وبدا وكأنه المتحكم الوحيد في سيرها ، أعانه على ذلك

[٨٦]- راجع كتاب محاورات مع النثر العربي – د . مصطفى ناصف – عالم المعرفة الكويت – ١٩٩٨ م ص ١٨٦ ، وراجه كتاب السرد في مقامات الهمذاني ص ١٥٦ .

كله استقواؤه بحركية الفعل الماضي الذي اعتمد عليه أكثر من ثلاثين مرة في تمهيده ، وكأننا بذلك بتنا أمام كمٍ هائل من السياقات المنتجة للفعل الماضي والمبررة له ، مما يدفعنا إلى القول بأن حركة الفعل الماضي في هذا التمهيد أعطى هذا المدخل طاقة حيوية دلالية خدمت المضمون ؛ هذه الطاقة هي وليدة استعداده الذهني [٨٧]التي اختزن فيها كل صور التعدي والتجاوز والقسوة لرموز الجبروت في بلاد النوبة ، والتي تغلب عليها دوافع العنف والانتهازية والتمادي ، ولذا نجد مادة الفعل الماضي هنا شغلت المساحة التمهيدية كلها ، وأغلقت النص عليها ، فخرج علينا التمهيد التبريري بهذا الكم من أفعال العنف التي تأتي كمقدمة للحظة الانفرجة ، لاحظ كيف وظف أفعال الماضي بدلالات تشي بتجاوز حكام النوبة أو رموزها بكل معاني القسوة والتجاوز والعنف المعنوي والمادي (أضلوا ، أوقدوا ، قست ، طغت ، طغى ، أوردت ، غرت ، أصدرت ... إلخ) والأمر ذلك نراه مكرورًا في بنية الصيغ الخبرية الاسمية المبنية على ترادفية المبتدأ والخبر ، وهي الترادفية التكاملية (الأوثـــان منصـــوبة ، والآياتمغصـــوبة ، والتيجانبغيرأكفائِهامنالهاماتمَغْصُـــوبة ، والمعتدونقدأضلُّوافِعالا ... إلخ) .

والدال الثاني هنا هو هذا الحرص من الراوي الأمين أو ما أسميناه بالمؤلف الضمني للنص ، على تكريس هذه المعاني لجبروت رموز النوبة عبر فكرة (الصورة المرئية) ، وكأن النصية هنا أو السردية إنما تريد أن تمهد لمساحات مقبلة من رؤى الخلاص على أطر النص ككل أو رسومه ، فبدت الصور المرئية كعتبة للمشاهد الكلية ، ولذا رأينا (السيوف تلزم الغمود ، والخيل تتعل الوجى ، والبشائرتُمَسّكالصباحوتُخَلَّقُالدجى ، والأعناق قد تقاصرت ، والأوثان منصوبة ، والتيجان معصوبة ، والمنابر كادت تسقط من القواعد ... إلخ)

وما هذه الصور إلا مقدمات للنتائج أو للحظة الخلاص التي حرص على إثباتها – كطبعه – عبر سياقات التناص الديني والقرآني رابطًا إياها بإشارات التضمين التي تحولت عبر مراحل النص من مقدماته إلى بنيات التمهيد من التلميح إلى التصريح ، ومن المناطق

[٨٧]- الخروج من التيه ؛ دراسة في سلطة النص – د . عبد العزيز حمودة – عالم المعرفة – الكويت ٢٠٠٥ م ص ١٧٠ .

الخلفية للنص إلى قلبه ومحركه الفعلي ، وكأن فكرة اتكائه على التناصية القرآنية والتضمين الصريح قد مكنته من توجيه الأحداث بالنص إلى الوجهة التي يرضى عنها أبطال عمله الرسميين ؛ بطله الرئيس (صلاح الدين) و بطله الخلفي أو الثانوي (الخليفة العباسي) ، ودفعتها دفعًا لأن يكون حضورها حضورًا طاغيًا ومحركًا على مستوى سرد الأحداث وبنائها ، وعلى مستوى توليد منطق اللغة في النص الرسائلي وفي تراتبه ، وفي فتح مناطق التبرير في مقدمات النص وتمهيداته إلى مناطق الخلاص والإجابة ، لاحظ معي كيف وصل إلى مرحلة (الغاية) ، عندما حول سرده من مرحلة الوصف المرئي بالصورة إلى مرحلة (الواقع المحتم) بالفاعلية التناصية والتضمينية لكتاب الله ، وكأنه تسلل خفية داخل السرد الواصف ليرتفع بالسياق التعبيري إلى مستوى الواقعية ليقول في نهاية تمهيده موظفا دلالة الغاية بلفظها الصريح :

(حتىإذاجلاَّهااللهُلوَقتِها،وأنْجَزجموعَالضلالإلىميعادِشـــــــــــــــــــتَّها،وأراهمأيةَمَعْدِلته (ومانُريهممنآيـــــــــــةْإلاهيَأكَبرُمِنْأخْتِها) ، (جاءَالحَقُّوظَهَرَأمرُاللهوهمْكـــــــــــارِهُون) ، (وحِبطماصَنعُوافِيهاوباطلٌمَاكانُوايَعْمَلُون) ...)

وهنا أيضًا نستجلي عموم أدواته التي لم يستغن عنها من مراحل التبرير إلى مراحل الخلاص والتجلي ، وأهمها إيغاله في الخبرية اليقينية ، وفي الاتكاء على صدى الفعلية الماضية ليضعنا عبر لغته التواصلية أمام حقيقة واحدة ؛ هي حقيقة الخلاص المرتبطة بإرادة الخالق زمانيًا ومكانيًا (حتى إذا جلاها الله لوقتها ، وأنجز جموع الضلال إلى ميعاد شتها) وفي التناص والاستدلال مع المرادف القرآني الحي والصريح على درجة من درجات التوافق والانسجام والتوحد ، حتى لتشعر بأن التضمين القرآني إنما جاء دالا على مدلول كما قال البلاغيون القدامى ، وإن الطاقة الإبداعية هنا توقف دورها إلى حد بعيد عند إدراك التوافق بين الطرفين ، واستغلال الخواص المتعددة للدوال منفردة أو داخل التركيب ، سواء كان على المستوى الخبري أو الأدبي [٨٨] .

متن النص :

[٨٨]- راجع المثل السائر – لابن الأثير ج ٣ ص ١٥٣ ، والبلاغة العربية قراءة أخرى ص ١١٩ .

وبعد هذه المقدمات والتمهيدات الطويلة ينتقل الفاضل إلى صلب رسالته ، والتي خصصها لوصف معركة الخلاص والنصر لبطله الرئيس على أعداء الله كما وصفهم ، وليضع المتلقي (البطل الخلفي أو الثانوي) في قلب الحدث ، ليريه كيف أن الله عز وجل قد انتخب مملوكه الأمين من بين أهل الأرض ليحيي ما أماته الباطلمن فروض الحق ، وليرفع لواء النصر ويمد من ظله ، ويستلهم الهمة والعزيمة في كسر صياصي الكفر والفساد ، وفل سيوف الضلال ، واستزلال أقدام الأعداء ، وهدم منابر الشرك والتعجيل بتداعيها ، والنيل من نفوس المتجبرين والاكثار من تناعيها ، وحصدهم حصد الحشيش ، فلا ترى لهم باقية ، وليبسر للذين كُتب لهم العفو منافعهم ومشاربهم ، وينشر فوق رؤسهم سحابات العدل ويقيم أسسه وثوابته ، ويفضح ما زوره جبابرة الحكم من أنساب وأحساب وأصول ، ويظهر زيفهم وحقد نفوسهم وأمراض طويتهم وسوء نواياهم ، ويحطم أصنامهم وأوثانهم ، لتقر كلمة الله وتثبت ، وترتفع راية أن الملك لله وحده ، والويل لمن تجاوز حده .. لاحظ قوله :

(كانتنعمةًمناللهيَمُنُّهاعلىالمملوكأنانتخبهُمنبينأهلِأرضهِ،وانتخبهُلإقامةماأماتالباطلُمنفرْضه،ويَسَّرهُ لمايَسَّرهُمننُصرةِالحقوأهلِه،وبَشَّرهبمابَشَّرهمنلواءالنصرومَدَّمنظِلّهِ،وألهمهالهِمةَالتيافترَعَمنهابكرًا،ومن حهُالنُّصرةفيمايستطيعُالعدوصرْفاولانصرًا،مكَّنهمنصَيَاصيهمفحَلَّها،ومندِمَائِهمفطَلَّها،ومنسيوفهمفلَّ ها،ومنأقدامهمفاستَزَلَّها،ومنمنابِردُعاتِهمفعجَّلتَداعِيهَا،ومنأنْفسأعدائِهمفأكثرتَنَاعِيَهَا،وأبْرزَالذينكُتِبَعليهمالقتلُلإمضاجعِهِم،ويَسَّرالذينكُتِبَلهمالعفوإلىمنافعِهِم،ونَثَّرخَرَازتِالمُلكِمنتِيجانِها،وفَضَحعليدهِوبلسانِهمازَوَرَتْهمنأنسابها،وحَاسبهافأظهرزَيْفَحِسَابها،ونقلهامنظهورأسِرَّتهاإلىبُطُونتُرابِها،وعَمَدَإلىأهلِدعوتِهاالذينبَسَقوابُسُوقالنخلفأعلاهمعلىجُذُوعِها،وحملتْقلوبُهمفُوفَالحقدفأخرجهامنأكمامِطلُوعِها،فهلتربلهامن باقِية،أوتسَمْعُلهممنلاغية،أوتَجِدُإليهممنصاخية،فأصبَحُوالاتُرىإلامساكِنهمأومَساكِينُهم،وحصدواحَصدالحشيش،ثملاتُخافُسُيُوفهمولاسكاكِينُهم،واستُنزلوامنعِقابااللُّوح،وسُجِنوافيالهَمِّمنطولمُدَاومةعِقابالرُّوح،ثمتدارَكُوإلىالدَّرْك،واشتركُوافيالشَّرْك،وأقفرتمنهممعِراص،وزَهِدَتْفيهممخَوَاص،وعُلِمأنليسللهغالِبْ، وأنليسيفُوتهطالِب،وأنالمُلكَللهوحده،وأنالويلَلمنتجاوزأمْرهوحَدَّه،وكانالمملوكُممنعَطّلمنأوثانِهم،وأبْطلَمن أديانِهم،فائزًابحسنةِينظُرُإلىالحسناتِخليلاللهصلىاللهعليهوسلمفيكَيْدهالأصناموتكْسيرها،وتضليلِهعابِدِيهاوتكفِيرِيها،وعَمدَالمملوكُإلىالمحاضرفجمَعَها،وإلىالمنابِرفرَفعها،والجمعةفأطاعَمنشَرَعها،وأسماءِصه

حابةرسولاللهصلىاللهعليهوسلمفوَصَلهاباسمهوماقطَعَها،وعمومتِهرضوانااللهعليهمفتلاهالهواتبعها،و أشادَباسمأميرالمؤمنينلتكونَالصلاةُجامعة،والذِّكْربشاملةًوالإمامةُللجماعةشارعة،والهدايةُللضَّـــلالة صارعة،فعادتْللملَّةأعياد،واخضَرَّتللمنبرأعواد،وأُنْجزَللأمةميعاد .)

والمتن كما نري يشعرنا بدرجة من درجات انفتاح النص وتداعي أحداثه على درجة من درجات التراكم والتلاحم والتكثيف والسرعة ، بعد أن كان النص مُغلقا على إشارات التبجيل والتهليل والترحيب والتمهيد ، وكأن المؤلف الضمني أو الرواي الأمين يحاول من خلال مراحل التنامي النصي أن يتحكم في النصية ذاتها على لسان بطله الرئيس بكل أبنيتها الكلية والجزئية ، الخلفية والحاضرة ، وأن يشعرنا بسلطته في التحكم في مجريات الأحداث وتلاحقها ، ثم يحاول أن يفتح ذاكرته على دقائق معركة الفتح ، ويوجه ناموس الحكي إلى أحداث بعينها حسب رؤيته الخاصة ، ولذا نراه على سبيل المثال حريصًا في هذه الرسالة الطويلة على إكمال الأحداث إلى نهايتها الطبيعية ، فلم يبترها عند نقطة معينة ، وكأنه يتحرك في دائرة متسعة ، تتباعد مع طول الرسالة أطرافها ، ولذا جاء حضور الراوي هنا بلسان البطل الرئيس حضورًا طاغيًا على مستوى الأحداث (فهو البطل الوحيد في النص) ، وعلى مستوى إنتاج اللغة ؛ فاللغة جاءت كسابقتها ملتحمة بالأداء الخبري لحركة الأفعال على تنوعها ، وجاءت الأفعال بدرجة كبيرة أفعالا حركية لاحظ تكوينها (**مكنه من صياصيهم فحلها ، ومن دمائهم فطلّها ،ومن سيوفهم ففلها، ومن أقدامهم فاستزلها ، ومن منابر دُعاتهم فعجل بتداعيها ، ونثر خزازت المُلك من تيجانها ، ونقلها من ظهور أسرتها إلى بطون تُرابها ... إلخ**) ولا شك أن كل ذلك عجّل بتنامي حركة الأحداث داخل النص ، والوصول إلى غايتها ، وهي ما اعتاده في مثل هذه الرسائل السياسية ورسائل الفتوح ، وهو الإغراق في الوصف والإطناب فيه ، والتهويل من شأن المعارك ، ظنا منه أن هذا التهويل أدعى إلى الجهاد ، باعتباره دافعًا من دوافع الحث على فتح الأمصار والأقطار والبلدان ، وإظهار بأس الفاتحين خاصة إذا كان الخصم عنيدًا كما في النص الحالي .

كذلك نلاحظ أن النص رغم انتقاله من مراحل التقديم والتمهيد الطويلة إلى النصية الموضوعية ذاتها إلا أن راويه العليم حرص في سياقاته على توحيد الانتماءات الصياغية واللغوية والفنية ، ومنها الانتماء التناصي مع آيات الذكر الحكيم وهذا ما يمكننا أن نراه في

نطـاق وصـف معركـة الفـتح علـى سـبيل قولـه : **(مكَّنهمنصَيَاصـيهمفحَلَّها)** وقولـه: **(ومنأقدامهمفاسـتَزَلَّها)** وقولـه **(وحملثْقلويُهمفُوفَالحقـدِفأخرجهامنأكمامِطلُوعِها) ،(فهلتربلهامنباقِية،أوتسَمْعُلهممنلاغية،أوتَجِدُإليهممنصاخية)** فالتنـاص هنا سواء كان لفظا أو سياقًا أو جزءًا من آية ، إنما جاء طرفا من ثنائية الإشارات الدلالية ، وهذا ديدن القاضي الفاضل في جم رسائله ، وهو ما أشار إليه الدكتور زغلول سلام حينما أكد على أن الفاضل (تفنن في الاقتباس من القرآن الكريم ، والاستعانة بآياته بطريق التضمين أو الإشارة أو التلميحأو الاقتباس الصريح ، وإنما في ذلك مقصده من خلق الدلالة) [٨٩]، والدلالة هنا بلا خلاف هي حرصه المكين على ربط منظومة الفتوحات لبطله الرئيس – صلاح الدين – بالأصل العقيدي والإيماني والإيحائي خاصة والخلافة في عهده مازالت في طور الخروج عن النسق الطائفي الشيعي الذي حكم هذه الأقطار طيلة عقدين كاملين ، إضافة إلى رغبته المكينة في ترسيخ المبدأ السني من جديد ، وإلحاقه بمركزه الرئيس في بغداد .

وإذا كان هذا التناص القرآني قد أتي في صورته التضمينية المباشرة ، وعبر سياقات الوصف لمعركة الفتح ، فإنه قد جاء أيضًا عبر سياقات الحكي المُفصل في صورة تتجاوز المرادف ، والمفرد المُتضَمن إلى الاقتباس من الحدث القرآني ذاته ، أو القصص القرآني نفسه ، خاصة إذا كان هذا الحدث لدى الرواي المُتكلم يمثل قيمة تقارب قيمة حدث الفتح ذاتهأو تفوقه ، وهذا ما حرص عليه الفاضل حينما قرن بين دور بطله الرئيس صلاح الدين في هدمه لأصنام أهل النوبة وأوثانهم وأزلامهم بالدور الذي قام به الخليل إبراهيم – عليه السلام – من تحطيمه لأوثان قبيلته وقومه ، وطبيعي أن يأتي ذلك كله في إطار من إطارات المبالغة الوصفية لمعارك الفتح التي قادها صلاح الدين بنفسه ، وقد بدا ذلك في قوله :

(

وكانالمملوكُممنعَطّلمنأوثانِهم،وأبْطلَمنأديانِهم،فائزًابحسنةٍينظُرإلىحسناتِخليلاللهصلىاللهعليهوسـلمفي كَيْدهالأصناموتكْسيرها،وتضـليلِهعابِدِيهاوتكفِريها) ، فـالملاحظ هنـا أن الـراوي العلـيم فـي

[٨٩]- الأدب في العصر الأيوبي ص ٢٠٤ .

توظيفه لبطولة رمزه وبطله الرئيس صلاح الدين إنما استدعى الحدث التراثي الديني ذاته ، واستدعى صاحبه الخليل إبراهيم ، وكأن الشخصية هنا باتت وسيلة للتعبير (بها) عن الموقف ، وليس التعبير عنها فقط على مستوى موضوعية الخطاب للمتلقي[٩٠] ، خاصة وأن فنية استدعاء الشخصية الدينية بحجم الخليل نبي الله لم يكن على سبيل الاعتماد عليه فحسب ، ولكن الاستدعاء هنا معتمدًا على فنية الدلالة لقيمة الفتوح ، وقيمة ارتباطها بالحدث التاريخي ، أو الحدث الديني كما أراد الراوي نفسه أن يصبغه بهذه الصبغة ، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن الإشارة هنا إلى شخصية نبي الله إبراهيم – عليه السلام – ودوره في سياق النص وهو الرمز الأكبر إنما كان من سبيل المعايشة لروح شخصية البطل الرئيس ودعم مواقفها وتأييدها في ظلال الفتوحات على درجة من درجات الوعي والمبالغة في حديث الفتوح ، لأن هذه الأسماء تحمل تداعيات بعينها ترتبط بقصص تاريخي ديني ثابت وركيز ، وتشير قليلا أو كثيرًا إلى شخصيات وأماكن ذات قيمة [٩١]، وهذا ما يجعلنا نقول بأن استدعاء الشخصية التراثية هنا جاء صورة صريحة من صور الارتباط بالموروث حتى في تلك الفترة الوسيطة ، خاصة أن التراث الديني وقصصه سواء على مستوى الشخصية أو المكان غني بالإمكانات والمعطيات والنماذج التي تستطيع أن تمنح العمل الأدبي طاقات تعبيرية لا حدود لها فيما لو وصلت أسبابها بها ، وهذا ما أدركه الراوي الأمين هنا في رسائله السياسية من استغلال لهذه الإمكانات حتى يكون قد وصل بتجربته إلى درجة من القدرة على الإيحاء والتأثير ، وذلك لأن المعطيات التراثية هنا تكتسب لونا خاصًا من القداسة في نفوس الأمة ، ونوعا من اللصوق بوجدانها ، لما للتراث من حضور حي ودائم في وجدان الأمة ، والقاضي الفاضل حينما يتوسل إلى الوصول إلى وجدان أمته بطريق توظيفه لبعض مقومات تراثها يكون قد توسل إليها بأقوى الوسائل تأثيرًا ، وكل معطى من معطيات التراث يرتبط دائمًا في وجدان أمته بقيم روحية ووجدانية وفكرية معينة ، بحيث يكفي استدعاء هذا المعطى أو ذاك

---

[٩٠]- راجع كتابنا (بنية السرد وموقع السارد في أدب المرتحلة العربية) – د . بهاء حسب الله –دار الفتح للطباعة والنشر – الإسكندرية ٢٠١٤ م ص ٢٢٤ .

[٩١]- استرايجية التناص – محمد مفتاح – نشر المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء ١٩٨٥ م ص ٦٥ .

من معطيات التراث لإثارة كل الإيحاءات والدلالات التي ارتبطت به في وجدان السامع تلقائيًا [٩٢].

ولذا نجد هذه النمطية مكرورة في متن النص بشكل لافت ، جنبًا إلى جنب مع تناصه القرآني ، فهو لا يمل من توظيف الشخصية التراثية الدينية ، وتوظيف الحدث التراثي ذاته مقرونا بموضوعية الفتوح لبطله الرئيس ، الذي يتحدث بلسانه ، ويختلق الظروف لاستدعائها ، وكأنه بذلك ينفد إلى فكرة المقارنة أو رصد المفارقة بين أكثر من حدث وأكثر من مكان ، وأصبحت مثل هذه المعالجة في نصوصه السياسية والرسمية إجراءً صياغيًا لافتا ذي مرجعية ثابتة في جم رسائله ، وهو إجراء يأتي قي سياق وصفه التصويري لتلك المعارك والفتوحات بدقته المعهودة على سبيل قوله في ختام المتن :

(وبعدذلكتحاشدتْأولياءُالذاهبينوتنادَتْ،وتسَاعتْنحومستقرالمملوكوتعادَتْ، (وإذزُيِّنَلَهُمُالشيطانُأعْمالَهُمْوقالَلاغالبَلكُمُاليَوْمَمنالنَّاسِوإنيجَارٌلَّكُمْفلماتَرَاءتالفِئَتانِنَكصَعَلَىعَقِبَيْهِوقالَإِنَبَرِيءٌمِّنكُمْ)

وكانواحِميَّةحامِيةمنبنيحامكالجرادأرْجُلا،إلاأنَّاللهحَطَمهابسُلَيْمانِه،معمَنانضمَّإليهممنألفافِوأطراف،و أوشابِوأوباش :

منجُنديكسَبَهسيفُهذُلَّة،وطَرَدهعنمواقفالكِراموبمحالالخِزْيأحَلَّه،ومنأرمنيَّكانوايفْزَعونإلىنُصْرةنُصْرانيَّته، ويعتمِدُونمنهعلىابنمعمودِيَّته،ومنعامِّيّأجابهملفْرَطعَمَاهوتَفْريطعامِّيته؛فملأالعيونَسوادهُماالأعظَم،وور اءهمبأسُاللهالذيلايُرَدّعمنأجْرَم،فأمطرتهمالسيوفُمطرًاكانواغُثاءًلسيولهالجَوَارف،وعصفتْبهمالأعنَّةُع صْفًاكانواهَبَاءًلهُوجِهالعواصِف، (فظلَّتْأعْنَاقَهُملهَاخَاضِعِين) ،وعُوتبتالأنفُسوالأرؤس (قَالتَاأَتَيْنَاطائِعِين)

،وظلتْقِحافبنيحامٍمتحتغِربانالفلاغِرْبانًا،وشُوهدتْظُلُماتٌبعضُهافوقبعضٍأفعالاوألوانا،وصفَتْمواردُالسلطانِ منالقذى،وطَفِئذلكالفَحْمُفلايَجِدُالنِّفاقُبعدهماتتعلّقُبهاالُجذى،وبُلِغتالغاياتُفيكَشْفكلأذىلابضَرْببموعِدٍيقالفيه هإذا)

[٩٢]- استدعاء الشخصيات التراثية – د . علي عشري زايد – دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٩٧ م ص ٧ .

فاستدعاء الشخصية التراثية هنا تجلى في حدثين مجازيين بارزين ، الحدث الأول في استدعاء صورة (بني حام) وهم قوم نوح الذين خذلوه في دعوته ، وتخلوا عنه ، وخالفوا إرادته ، وتوظيفها في سياق الوصف لجبابرة النوبة وأكابرها وأكاسرها ورموزها ، ثم استدعاء شخصية النبي (سليمان) عليه السلام في نطاق الرد والكشف عن طبيعة مجابهة بطله الرئيس صلاح الدين لهؤلاء المارقين الخارجين عن حومة الدولة ، ودائرة الدين ، وتضفيرها بشخصيته كما فعل من قبل حينما دمج صورة بطله بصورة الخليل إبراهيم لاحظ قوله : (وكانواحِميَّةحامِيةمن**بنيحام**كالجرادأرْجُلا،إلاأنَّاللهَحَطَمها**بسُلَيْمانِه**،معمَنانضمَّإليهممنألفافٍوأطرا ف) إذن فمنهجية الوصف عنده وهو في زمن الحضور تستدعي دائمًا الإيغال في استدعاء صور الماضي المقدس ، وكأنه حريص على توثيق نصوص الفتوح بالبعدين الديني والتاريخي من خلال توظيف قصص الأنبياء في خلفية السرد الوصفي ، دون أن يقطع هذا التوظيف الرابط الموضوعي لمتن النص ذاته ، رغم اختلاف الشخصيات المستدعاه ، والحوادث المرتبطة بها ، وهو ما يحسب له ويكشف عن قدراته على الربط بين عدد من الشخصيات والمواقف في سياق واحد أو أكثر من سياق [٩٣] .

وهو في هذه الدائرة الوصفية والمرتبطة باستدعاء الشخصيات التراثية المقدسة القديمة يزكي الحدث الوصفي ويراكمه باللوحات الوصفية المتتابعة والمفصلة لمعركة الفتوح ، ولذلك نراه يكثف إيقاع الحدث الوصفي مستدلا باللغة ومكوناتها الدلالية على نمطية إيراد أحداث الفتح في شكل موجات وشحنات متوالية ، ترتكن كثيرًا على ركيزة التفصيل عبر الجمل القصيرة ، وبنياتها الخبرية المتنوعة ، سواء اعتمدت على بنيات الجمل الاسمية أو الفعلية ذات الدلالة السريعة والمباشرة في إيراد المعنى وتحقيق وظيفته الوصفية ، خاصة أن الوصف هنا يغني النص السياسي في مكونه العام من حيث المبدأ الذي وجد لأجله ، لاحظ معي كيف كثف الحدث ونوَّع فيه برؤية مفصلة لواقع المعركة وشخوصها ودوافعها وكيف ركَّبها على جملة الخبر الدالة :

[٩٣]- المرجع السابق ص ١٦ .

(

وكانواحِميَّةحامِيةمنبنيحامكالجرادأرْجُلا،إلاأنَّاللهَحَطَمهابسُلَيْمانِه،معمَنانضـمَّإليهممنألفافٍوأطراف،و أوشـــــــــابٍ وأوبـــــــــاش : منجُنديكسَبَهسيفُهذُلَّة،وطَرَدهعنمواقفالكِراموبمحا لاالخِزْيأحَلَّه،ومنأرمنيَّكانوايفْزَعونإلىنُصْرةنُصْـرانيَّته، ويعتمِدُونمنهعلىابنمعمودِيَّته،ومنعامِّيّأجابهملفرْطعَمَاهوتَفْريطعامِّيته؛فملأالعيونَسوادهُما لأعظَم،وور اءهمبأسُاللهالذيلايُرَدّعمنأجْرَم،فأمطرتهماالسيوفُمطرًاكانواغُثاءًلسيولهالجَوَارف،وعصفتْبهمالأعنَّةُع صْفــًاكانواهَبَاءًلهُوجِهالعواصِف، (فظلَّتْأعْنَاقَهُملهَاخَاضِـــعِين) ،وعُوتبتالأنفُســـوالأرؤس (قَالتَاأتَيْنَاطـــــــــــــــــــــــــــائِعِين) ،وظَلتْقِحافبنيحامٍتحتغِربانالفلاغِرْبانًا،وشُوهدتْظُلُماتٌبعضُهافوقبعضٍأفعالاوألوانا،وصفَتْمواردُالسلطان منالقذى،وطَفِئذلكالفَحْمُفلايَجِدُالنِّفاقُبعدهماتتعلّقُبهالُجذى،وبُلِغتالغاياتُفيكَشْفكلأذىلابضَـرْببموعِدٍيقالفيهإذا) .

فالاعتماد في النص السابق على المرادف الخبري الدال والمتدرج والفعال جاء وهو يتحدث عن نوعية المحاربين والمارقين من رجال النوبة الذين صنفهم في لقطة تفصيلية وصفية ما بين (ألفافٍوأطراف)[٩٤] و (وأوشابٍوأوباش) [٩٥] ، ثم أفاض في لوحته التفصيلية الراصدة ليعدد ألوانهم وأنواعهم في جمل متوالية بعد أن أجملهم في نسبية قوم (حام) فهم : (إما جندي كسبه سيفه ذلة ، أو أرمني يحمي نصرانيته ، أو عامي أجابهم لفرط عماه) ، ثم تتوالى الجمل المفصلة لتصل بنا إلى مناطق الإضاءة الحقيقية الكاشفة في النص ، أو الدور المحوري للبطل في سياق النص ككل والذي سيتجلى عبر جمل الحركة والسرعة والتزامن ، والتي يعتمد فيها – كعادته – على دوالية الفعل الماضي وإشاراته ، والتي غالبا ما تعكس إيجابية رد الفعل وسرعته ، لاحظ كيف وظفه بدقة وبدلالة وبدفقة واحدة متتابعة على درجة من درجات الوعي : (فأمطرتهماالسيوفُمطرًا، وعصفتْبهمالأعنَّةُعصْفـًا ، وعُوتبتالأنفُسوالأرؤس

---

[٩٤]- الألفاف : الصنوف المختلفة والمتناقضة من الناس ، والأطراف يقصد من هم يسكنون خارج البلاد أومن سكان الأطراف النائية

[٩٥]- الأوشاب : السفلة من الناس ، والأوباش : الغوغاء

، وظلتْقِحافبنيحامِتحتغِربانالفلاغِرْبانَـــــــا ، وشُوهدتْظُلُماتٌبعضُـــــــــهافوق بعـــــــض ، وصفَتْمواردُالسلطانمنالقذى ،وطَفِئذلكالفَحْمُ ، وبُلِغتالغاياتُفيكَشْفكلأذى .. إلخ .

إضافة إلى حرصه على تناص كلامه وتضمينه بآيات الذكر الحكيم كعادته ، وكأنه في ذلك يرد النصر إلى صاحب النصر في عُلاه وملكوته وسلطانه ، أو يوسع من دوائر الوصف والحكي والاستدلال ، أو أن التضمين القرآني هنا جاء كبناءٍ مواز لبنية النص ككل ، مما يعكس رغبته الأكيدة في وضع العمل في رسالة (البوتقة الإيمانية) وهو يخاطب خليفة المسلمين الخليفة العباسي .

إذن فوصف المعركة بهذه الصورة ، ومن قبلها وصف جبابرة النوبة بكامل صنوفهم وبطونهم يرجع إلى ما يمكننا أن نسميه بسيطرة النهج الوصفي في متون رسائله السياسية ، كمنهج تطبيقي لمعظم رسائل الفتوح ، إضافة إلى أن توظيفه للأفعال الماضية المردفة لوقع السرعة في مدار المعركة على هذه الصورة (أمطرت – عصفت – عوتبت – ظلت – شوهدت – وصفت – طُفيء – بلغت) أعطانا إحساسًا بأن هناك روحًا قافزة فوق الأحداث ، ومغلفة بحس الحماسة ، ومشحونة بمناخ الوعي العقيدي عند القاضي الفاضل في رسائله جمة ، وهو الوعي الذي يعطي أكثر من رمز في الداخل في محيط السلطنة في مصر ، وفي الخارج في محيط الخلافة العباسية الأم في بغداد .

ومدلول ذلك كله يشير إلى أن اللغة في مثل هذه النصوص السياسية والحربية إن أردنا الدقة ، تبقى ذات خصوصية فريدة تحكمها زوايا الحكي والسرد والوصف المفصل للمشاهد والأحداث ، خاصة في متن النص ذاته ، بعيدًا عن المقدمة والخاتمة ، ولذلك فالبنية هنا تكتسب علامات خاصة ، وسمات بعينها لأن اللغة في هذا الفن (وسيلة) تؤدي غرضًا محددًا ، وتوصل إلى غاية بعينها ، ومن ثم فإن دورها – شأن كل وسيلة من الوسائل – ينتهي بالوصول إلى الغاية المستهدفة من ورائها ، بحيث يظل المضمون فيها متميزًا إلى حدٍ ما عن الشكل اللغوي الذي يحمله ، ولذا نجد أن بنية الأساليب المحركة والدافعة للنص ، كالأسلوب الخبري في هذا النص ، هي التي تتحكم في حركة اللغة ، والتي تقوم على فكرة استخدام الإمكانات والاحتمالات الأسلوبية المتاحة ، سواء للسرد أو الوصف أو الحكي وغيرها ، والتأكيد عليها في مقابل إمكانات واحتمالات أخرى ، ومن هنا يصح لنا أن نختبر

هذه الأساليب من زاوية قدرتها على استعمال اللغة في هذا الفن ، وفي تنظيم سياقها ، وفي تحقيق سمة الانسجام فيها [٩٦].

الرابط الختامي :

وتصل الرسالة إلى رحاب الخاتمة بلمسة واعية من كاتبها ، وعلى لسان بطله الرئيس ، وأقصد بهذه اللمسة لمسة الدوران في فلك الخلاص ، وهو الفلك الذي يستدعي البحث عن نقطة النهاية ، ومحور الختام ، وما يترتب عليهما من تبعات خروج النص إلى بر الأمان من زوايا الإقناع والتبرير والوصول لمبتغاه ، ولذا نجد القاضي الفاضل ينتقل فيها من دائرة الوصف الحكَّاء إلى دائرة من دوائر الالتفات الخطابي الضمني غير الصريح ، متكئًا على فكرة الرابط الموضوعي ، والرابط الموضوعي في سرده الختامي يمثل – عن حق – مرحلة من مراحل الخصوبة في النص ، باعتباره واسطة العقد بين بنية المتن وبنية الختام ؛ وهذه الواسطة مفادها الخطابي الالتفاتي هي طمأنة خليفة المسلمين ؛ الخليفة العباسي بأن الأمور قد استتبت في بلاد النوبة ، وأن أوار الفتنة قد خمد ، وعودة النوبة إلى حظيرة الخلافة قد باتت في رواق الحقيقة ومراس الواقع ، والدعاء للخليفة على المنابر قد صار دُبر كل صلاة ، وأن المحبة للدولة العباسية قد صارت سرًا من أسرار القلوب ، بعد أن بايعت القبائل خليفتها مبايعة وافية بعُهدٍ مكتوبة ، ودخل الناس في الحق أفواجًا ، وسلكوا منه شرعة ومنهاجًا ، وتجلى ذلك كله في رابطه الختامي حينما قال :

(وكاتبالمملوكُ،واسمأميرالمؤمنينقدكُتِبسطرُهعلىجبينالنقديْن،وسُمِعلفظُهمنفمْالمنبرينبالبلدين،ومدّكلُّمِنْبريدابليدين؛فحينسمعالناسُقالواحقّـًاماقالهذواليَدِيْن،وصارتتلكالأسماءُدُبْرًاالآذانووراءالظُّهور،وحصَّلتِالمحبَّةُالعباسيةسِرْاًمنأسرارِالقلوبِإذاحُصِّلَمافيالصُّـدُور،والخلائقُمبايِعةٌمتابعةٌوافيةٌبعهْدِهمتوافِيَة،داخلونفيالحقأفواجًا،سالكونمنهشِرْعةومنْهاجًا .)

إذن فهذا الرابط الختامي جاء كبنية مركزية في النص ككل ، لاعتبار مهم ألا وهو أن الراوي انتقل فيه من مرحلة الوصف المسهب إلى مرحلة (بلوغ الأسباب) و (حلول النتائج) والكشف عن حقيقة الفتح لبلاد النوبة ، وكأن هذا الرابط أوحى إلى صاحبه بتوجه

[٩٦]- الأسلوب ، دراسة لغوية وإحصائية – د . سعد مصلوح – دار الفكر العربي – القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٨٤ م ص ٣٢ ، ٣٣ .

صياغي جديد أوقف الراوي فيه تقنية وصفه الحكاء لمعركة الفتح من ناحية ليمرر تقنية الخلاص والوصول لمرحلة النتائج من ناحية أخرى ، وإن كانت بنيات اللغة وتراكيبها لم تخرج عن المألوف (الفاضلي) من حيث الاتكاء الثابت على جملة الخبر ، التي تحولت على يديه إلى جملة يقينية ركيزة لا تحتمل الشك أو القسمة أو التفكيك ، تقوم بأدوارها متكاملة وأهمها دور الاستحضار لبنيات التناص القرآني على مستوى اللفظ والموقف ، فعلى مستوى اللفظجاء قوله (والخلائقُداخلونفيالحقأفواجًا،سالكونمنهشِرْعةومنْهاجًا) ، وهو ما يتناغم مع تناص الموقف ، وكأن الرجل هنا يقرن فتح بلاد النوبة ، بفتح مكة في زمن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –ودخول الناس على أثره في دين الله أفواجا ، وهذا ديدن الفاضل في رسائله كما قلنا ، وهو أيضًا ما يكشف – وكما أشرنا من قبل – أن النص التناصي جاء كنص مواز طيلة مقاطع الرسالة ، يعكس رغبة مضمرة كانت وراء توجهات السرد سواء في مده أو اختصاره أو ربطه بالخلفية العقيدية للحدث ، وللبطل الرئيس في آن واحد .

كذلك اعتماده على جملة الفعل الماضي كفعل حركي في هذا الرابط ، أفاد دلالة التحول وسرعته الذي أصاب أهل النوبة على أثر الفتح لاحظ كيف جاء الفعل ليوسع مناطق الحكي المتدرج والمتنامي ، ويردف بفكرة (بلوغ الأسباب) وتحقيقها : (كُتب سطره ، وسُمع لفظه ، ومدَّ كل منبر يدا ، وسَمَعَ الناس ما قالوا ، وصارت تلك الأسماء ، وحصلت المحبة العباسية ، وحُصِّل ما في الصدور .. إلخ) فمثل هذه الصيغ ، ومثل هذه الصياغات الماضية إنما جاءت أيضًا في سياق حرصه على صيرورة خيوط التدفق والتوافق حتى نهاية النص ، وهي الخيوط التي لا تسمح للمتلقي أحيانا بالتقاط أنفاسه ، ففي حالة التدفق هذه تمتزج اللغة الصافية بالتداولية ، بل إن بعض النصوص تسير في اتجاه سريع ومتراكم ومنتج ، فتمتزج اللغة التداولية بالصافية ، وهذا أو ذاك لن يهز النصية بحال من الأحوال ، طالما استطاعت اللغة عمومًا أن تؤدي وظائفها المنوطة بها [٩٧] .

إذن فنحن في مرحلة (الرابط الختامي) بتنا أمام شكل صريح من أشكال الانسكاب السردي تغذيها كذلك تنويعات الجرس الموسيقي السجعي ، والذي حرص الفاضل على

[٩٧]- راجع بلاغة السرد ص ١٥٩ .

تنويعه في رابطه الختامي ما بين أكثر من مخرج وحرف (النون والراء والجيم الممدودة) ، أي ما بين حرف المد وحروف القطع ، وكأن محور الإبداع هنا يحاول كثيرًا جذب المتلقي إلى مساحته وحيزه من خلال إيثار عناصر التحويل والحركة والصوت والتداول ، وتذويب ذلك كله في العمق النصي قبل أن يختمه بالخاتمة الأخيرة ، وهو ما يوفر عنصر التجديد لطبيعة رسالته أو نصه ، وكسر قيود الملل المترتبة على إطالة صفحات الوصف ، قبل النقلة الختامية ، مع توفير الصيغ الدلالية التي تخدم ذلك كله .

خاتمة الرسالة :

وإذا جئنا إلى ختام رسالة القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله ، فنلمس فيها أنها تدور في فلك البدايات ، ومدار المداخل ، ووحي الاستهلال ، فالرجل فيها يعود إلى نبرة الحمد والدعاء للخليفة العباسي والإبانة عن فضائله باعتباره أميرًا للمؤمنين ، وإمامًا للخلق أجمعين ، ووارثا لأرض الله ، ومُحافظًا عليها ، وآمينًا على مقدراتها ، فلم يذر فوقها منازعًا لحقه ، ولا مُناهبًا لأرضه ، وبلغ كلمة الإيمان ورسالة الإسلام ، فعاد الدين في عهده مستنيرًا كنشأته الأولى ، هاديًا هدي الوحي في زمن التبليغ ، وكأن الزمان قد استدار كهيئته المثلى ، وعاد إلى سيرة فطرته الأصيلة ، كما أنه أقرَّ الحق في نصابه ، ووفي بعهد الله كل الوفاء، وأخذ بسنة حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ثم يحمد رب العزة والجلالة الذي صدق وعده ، وأورث أمير المؤمنين الأرض وحده ، وأعلى جده ، وأسعد نجمه ، وأصفى ورده .

ثم نلمس من زاوية الموضوع لمحة التجديد في هذه الخاتمة والمتجسدة في عرض المملوك لأمير المؤمنين وخليفة المسلمين بانتظاره للمهمات الكبرى والتكليفات الرسمية والأمانات المُثلى ليتحملها ، والتقليدات المطاعة ليتلوها ، والتشريفات السامية ليجلوها ، والسيوف القاطعة ليحكمها في رقاب المعطلين إن خرجوا عن عز الملة أو هزوا بنيانها أو أفسدوا في الأرض.... لاحظ قوله :

(والحمدُللهالذيجَعَلَأميرالمؤمنينإمامًالخَلْقه،ووراثالأرضهولميَذرْفوقالأرضمُنازعًالحقِّه،ولامُناهبالأرضه،وارتجعلهالحقّالذيكانناداّ،وردَّاعليهالأمرالذيلميكنلهغيرُاللهراداّ،وبلّغكلَّمؤمنمنإعلاءكلمةِالإيمانبهماكانلهوَاداّ،وأخّذَبيدانتقامهمَنْكانعنسبيلهصاداّ،والإسلامُقداستناركَنَشْأتهِ،والزمانُقداستدارَكهيْئَتِه،وال

حقُّقدقرَّفينِصَابه،والأمرُقدفرَّعنصَوَابِه،فقدوفاللهُالقرَارلهبضمانِه،وأخذبيدِهمارو بعنابنعمهصلىاللهعليه وسلموأصفىمنلسانه،فالحمدُللهالذيصدَقهوعْدَه،وأوْرثَهاالأرضَوحْده،وجدّدعُلاهوأعلىجَدّه،وأسعدَنجمَه ،ووعدهنُجْحهوأنجحَوَعْده،وأوردهوَصْفهوأصفىوِرْدَه .

المملوكُينتظرُالأمثلةَليتمَثلها،والأمانةَليتحَّملها،والتقليداتِالمُطاعةَليتلُوَها،والتشريفاتِالشريفةليَجْلُوَها،وا لسوادَليَجْلِيالحَلَكَعنضمائرالمبْطِلين،والسيفَالحَالِيلحُكْمهفيرقابالمعَطِّلين،وللآراءالشريفةفَصْلبرهانِها،و فضلُسلطانِها،وأمرهاالذيلايُخْرُجحينيخرجعنعزِّالملةوتوطيدِبُنيانها،وعزمهاالذييَرْفَعحينيُرْفعظُلمةأدخاذِ ها،إنشاءاللهتعالى) .

ومنينظرفيهذهالخاتمةيلمستقليديتها،وأنهاجاءتبهذاالتوجهالصياغيلتوقفحركة السردالحكائيالوصفيلمعركةالفتح،وتسمحبعودةموجةالحمد والدعاءوالثناء وتناميهاعلىدرجةمندرجاتالوعيكتقنيةسرديةمتبعةمنذالمدخل الأول ، أو كخاصية من خواص إنتاجه لتراكيب الاستهلال والختام ، مع حرصه على خبرية سياقاته ، وتوليد معانيها على صيغ الترادف والتكامل والتوحد لاحظ على سبيل المثال كيف تواردت بنيات الترادف والتكامل والتنامي في المعنى : (والحمدُللهالذيجَعَلَأميرالمؤمنينإمامًالخَلْقه،ووراثالأرضهولميَذرْفوقالأرضمُنازعًالحقِّه،ولامُناهبالأر ضه)،ليضعنا من جديد في حالة من حالات (اليقين) المكرورة لفضل الأمير ودوره في إرساء مباني العدل والحكموالقوامة ، ولصدق تبعية المملوك الأمين ، ورضاه بتكليفات العتبات الشريفة والتزامه بها وطاعته على وجه من وجوه الحق .

وتأتي الخاتمة كذلك كمنتج جمالي من حيث اعتمادها على مفرق صادع ومقصود تجسد ليس في تداعيات إنتاج المعنى المترادف فحسب ، ولكن في دورانه في فلك الوقع الموسيقي المحسوب ، وهو ما نلحظه في الاتكاء على مقاطع المد ، وقواطع السكون ما بين الهاء الساكنة ، والدال الممدودة ، والهاء الممدودة في الخاتمة الأخيرة لتعطي إنماطًا من الشغف بتكاملية المعنى وتناميها وتأثيرها على المتلقي في كل الأحوال ، رغم أننا نشعر كثيرًا بأن المعنى أو الصياغة قد استهدفت ذاتها وكررت نفسها ، ولكن تبقى الفائدة الصياغية هنا في استحضار كل أدوات الفن الفاضلية وإصباغها على لوحة المعنى بلون من ألوان الشغف والتأثير .

نتائج البحث :

وبعدفلقدسعىهذاالبحثإلىدراسةظاهرة (الرسائل السياسية لدى القاضي الفاضل – تطبيقا على رسالته في فتح بلاد النوبة) والوقوف على سماتها الموضوعية والفنية ، وطبيعة سردها وتكويناته وبنيانها وفنياتها ، باعتبارأنالرسائل السياسية في أدب القاضي الفاضلكانتظاهرةموضوعيةحقيقيةمنظواهرالموضوعالنثريفيأدبه المتنوع والخصب والجديد ، وفي أدب مصر الإسلامية في تلك الفترة الوسيطة من تاريخ الأدب العربي ، وظني أن ما تركه الفاضل من مجموع رسائله السياسيةيعادلكلما قدمه في ديوانه الشعري الكبير ،فالرسائل السياسية ورسائل الفتوح الصلاحيةتألقتفيإبداعه بشكل جعل لها خصوصية فريدة من زاويتي الموضوع والفن كما رأينا في رسالة فتح النوبة ،ودفعتهإلىإزجاءكلعواملالفنفيمطولاتهفيها ،وكأنناأمامنوعأدبيلهسمتخاصمستمد منمعين أدبي تجلت سماته الفنية بكاملمكوناتهاوتفاصيلهاالفارقةوالجاذبةمماأثرىالعملالأدبيككل ،وخلقظاهرةجديدةفيسياقالنثرالوسيطفه يمصرعلىوجهالخصوص ،ومثل هذه الظواهرمازالتفيحاجةإلىالبحثوالتنقيبعنهاورصدهاعلىدرجةمندرجاتالوعي .

وقدأسفرتهذهالدراسةعنالنتائجالتالية :

– وقفالبحثأمامظاهرةحقيقيةونادرة منظواهرنثرنا العربيالوسيط،وتحديدًافيالقرنالسادسالهجريلدىكاتب وشاعرومبدع كبيرمنمبدعيمصرآنذاك (القاضي الفاضل) له قيمته الراسخة والمعروفة والباقية على مستوى الخلافة الأيوبية ، ومن قبلها الفاطمية وعلى مستوى الأدباء الذين عايشوه عامة ؛ألاوهيظاهرة (الرسائل السياسية في أدبه النثري) والتي اتخذت على يديه خطًا جديدًا تمثل في هذه الحبكة والصنعة الفريدة ، والتي بدت في مداخله ، وبنياته في المقدمات الطويلة ، وخصوصياته في توجهه الصياغي شديد الدقة في متن النص ، وفي مخارج الختام وروابطه .

–أثبتالبحثأنمثلهذهالموضوعاتالنثرية،والتينضجتفيأدبمصرالإسلاميةعلى يد أمثال القاضي الفاضل ومحيي الدين بن عبد الظاهروالموفق بن الخلال وابن فضل الله العمري ،كانمنالواجبإلفاتالنظرإليها ،وإعادةقراءتهامنجديدفيضوءنظرياتالتحليلالمعاصرة،لاعتبارمهمألاوهوأ

نأدبناالمصريالوسيطيمتلكفي خطه النثري حساسيةفائقةفي سردياته وتكويناته وفنونه وتراكيبه ، هي في أشد الحاجة إلى دراستهامن زاوية تقنياتالنظرياتالأدبيةالمعاصرةفيما يخص المعالجات السردية ،ولاعتبارأنالظاهرةالتيندرسهاظاهرة(الرسائل السياسية) كلونٍ أدبي ظاهرة حقيقيةتجلتفيتراثالأقدمين،وتحديدًافيالفترةالوسيطةلأسبابعديدة؛منهامرورتلكالفترةبمراحلشهدتفيهام صرصراعاتسياسيةوحربيةوفتنًاداخلية،وخلفياتمرتبكةأسهمتفياشتعال الحروب والأزمات والصراعات ،وانعكستظلالهاعلى هذا النمط الأدبي وسياقاته شديدة الخصوصية .

-كشفالبحثعنالبعد الفني الحقيقي قبل الموضوعيلفن الرسائل السياسية عند القاضي الفاضلعلىمستوىبنيات السرد ودفقاتها،وتدرجمستوياتالتعبيرعنهامنذالمدخلأو المداخل وعبرمتنالنصوحتىحلقة سرد الخواتيم ،وعنوعيهبهذاالتدرجوحرصهعلىإثرائهبكافةطرقالتعبيرالمباشرةوغيرالمباشرة؛ ومنها حرصه على إنتاج التراكيب إنتاجًا جماليًا ، والتزامه ببنيات الخبر على حساب الإنشاء ، ودورانه في فلك حلقات الوصف ، وحرصه على توقيف السرد في محطات بعينها ، والسماح لها بالتنامي في محطات أخرى ، وهي ما مثلت عنده تقنية فريدة في مفارقات الكتابة والإبداع .

-عكفالبحثعلىتحليلرسالة فتح بلاد النوبة ، والموجهة إلى الخليفة العباسيتحليلافنيًاتناولأدواتالحبكةالنصيةوالبناءالفنيوالتناصي منزوايا عدةمنهاالزوايا التركيبيةواللغويةوالبلاغيةوزوايا السبكوالربطالدلالي،وزوايا البديعوالموسيقىمما جعلنابحقأمامعملدراميمتكاملتستحقأنتتناولهأدواتالتحليلالمعاصرةبكاملمورفاتهاودلالاتهاوإشاراتها .

مصادر البحث ومراجعه

- **ابن الأثير :** (ضياء الدين محمد) : الوشي المرقوم في حل المنظوم – تحقيق : يحيي عبد العظيم – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة ٢٠٠٤ م
- **ابن تغري بردي :** (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – دار الكتب المصرية ١٩٥٠.
- **ابن خلكان :** (أبو العباس أحمد بن محمد) : وفيات الأعيان – تحقيق محمد محيي الدين عبد الجميد – طبعة بيروت ١٩٧٢ م .
- **ابن سعيد المغربي :** (علي بن سعيد) : النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة – تحقيق د : حسين نصار – مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٠ م .
- **ابن سناء الملك :** الديوان – تحقيق : محمد إبراهيم نصر – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة ٢٠٠٤ م .
- **أرنست باركر :** الحروب الصليبية – ترجمة : د . السيد الباز العريني – دار النهضة المصرية – القاهرة ١٩٦٠ م .
- **د. أيمن بكر :** السرد في مقامات الهمذاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٩٨ م .
- **د . أنيس المقدسي :** تطور الأساليب النثرية – دار العلم – بيروت ١٩٦٨ .
- **د . بهاء حسب الله :** بنية السرد وموقع السارد في أدب المرتحلة العربية – دار الفتح للطباعة والنشر – الإسكندرية ٢٠١٤ م .
- **د . سعد مصلوح :** الأسلوب ؛ دراسة لغوية وإحصائية – دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٩٧ م .
- **د . سوسن محمد نصر :** رسائل القاضي الفاضل وصلاح الدين – دار الزهراء للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٩٠ م
- **شهاب الدين النويري :** نهاية الأرب في فنون العرب – تحقيق : مفيد قميحة وأخرون – ط . دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠٤ م .
- **د . شوقي ضيف :** الأدب في عصر الدول والإمارات ؛ مصر والشام – دار المعارف المصرية – القاهرة ١٩٨٤ م .

ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي– دار المعارف المصرية – القاهرة ١٩٨٢ م.

ـ المدارس النحوية –دار المعارف المصرية – القاهرة ١٩٨١

- **الصفدي :** (صلاحالدينأبو الصفاء)الوافي بالوفيات – المطبعة الهاشمية – دمشق ١٩٨١ م .
- **د . عبد العزيز حمودة :** الخروج من التيه ؛ دراسة في سلطة النص – عالم المعرفة – الكويت – ٢٠٠٥ م .
- **عبد القاهر الجرجاني :** دلائل الإعجاز – تحقيق محمود محمد شاكر – دار الخانجي – القاهرة – طبعة ١٩٨٤ م .
- **د . عبد اللطيف حمزة :** في أدب الحروب الصليبية –دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٦٢ م
- **د . علي عشري زايد :** استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر – دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٩٧ م .
- **العماد الحنبلي :** شذرات الذهب في أخبار من ذهب – تحقيق : عبد القاهر الأرناؤوط – دار ابن كثير ١٩٨٦ م .
- **العماد الأصبهاني :** خريدة القصر وجريدة العصر – تحقيق : أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس – لجنة التأليف والنشر – القاهرة ١٩٥١ م .
- **القاضي الفاضل :** الديوان – تحقيق : أحمد أحمد بدوي – دار النهضة مصر – القاهرة ١٩٦٢ م .
- **القلقشندي :**(شهاب الدين أحمد بن علي) صبح الأعشى – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٩٥ م .
- **كارل بروكلمان :** تاريخ الشعوب الإسلامية – ترجمة : نبيلة فارس ومنير البعلبكي – طبعة دار العلم – بيروت ١٩٦٨ م .
- **د . محمد زغلول سلام :** الأدب في العصر الأيوبي – منشأة المعارف – الإسكندرية ١٩٩٠ م .
- **د . محمد عبد الرحمن عطا الله :** رسائل القاضي الفاضل ؛ تحقيق ودراسة – دار الحضارة للطباعة والنشر – طنطا ٢٠٠٠ م .
- **د . محمد عبد المطلب :** بلاغة السرد – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ٢٠٠١ م

: البلاغة العربية قراءة أخرى– دار لونجمان للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٩٧ م .

: البلاغة والإسلوبية – دار لونجمان للطباعة والنشر – القاهرة ٢٠٠٠ م .

- **د . محمد مفتاح :** استراتيجية التناص – نشر الموكز الثقافي العربي – الدار البيضاء – ١٩٨٥ م .
- **محيي الدين بن عبد الظاهر :** الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم – تحقيق : د . أحمد أحمد بدوي – مكتبة نهضة مصر – القاهرة ١٩٥٩ م .
- **د . مصطفى سويف :**الأسس النفسية للإبداع الفني – دار المعارف المصرية – القاهرة ١٩٩٢ م .
- **د . مصطفى الصاوي الجويني :** البديع لغة الموسيقى والزخرف – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ١٩٩٣ م .
- **د . مصطفى ناصف :** نظرية المعنى في النقد العربي – دار الأندلس للطباعة والنشر – بيروت ١٩٩٣ .

: محاورات مع النثر العربي –إصدار عالم المعرفة – الكويت ١٩٩٨ م .
- **معالي عبد السلام الحلبي :** رسائل القاضي الفاضل في عهد صلاح الدين تحقيق ودراسة – مخطوط ماجستير – الجامعة الإسلامية بغزة – ٢٠١٣ م
- **د منير سلطان :** بلاغة الكلمة والجملة والجمل – منشأة المعارف – الإسكندرية ١٩٩٩ م .
- **موفق الدين الديباجي :** رسائل القاضي الفاضل في الحرب والسلام – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٤ م .
- **يوسف بن فراوغلي :** مرآة الزمان في تاريخ الزمان–نشر جامعة أمالقرى - مكة المكرمة ١٤١١ هـ .